فلسفةُ حيـاة

إسـلام باكـلي

روايــــة

رواية
فَلسَفَةُ حَيَاة
إسلام باكلي

الطبعة الأولى

السداسي الثاني 2017م - 1438هـ

ردمك : 978-9831-663-00-3

جميع الحقوق محفوظة لدار المثقف للنشر والتوزيع

العنوان: رقم 11 شارع الاستقلال - باتنة - الجزائر

هاتف: 86 73 49 675 213+ فاكس: 49 20 85 033

البريد الإلكتروني: Elmouthakaf2@gmail.com

يمنع إعادة إصدار أو نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيَّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي مسبق من الناشر.

تصميم الغلاف: زياد مراس

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

للتواصل مع الكاتب أو للإطّلاع على أعماله الأخرى:

Instagram : @islambakli

Wattpad: @IslamBakli

Twitter: @IslamBakli

Goodreads: Islam Bakli

Facebook : Islam Bakli

إهداء

إلى كلّ من يحلّ لي حبّه دون حدود

من جعل له خوف الفراق قيود

ورغم الألم يهدي الورود

لك يا غائب.. يا من رحلت ولن تعود

للذي نسى الواقع وعاش الشرود

من تحمَّل عبء حمل الوعود

إلى كلّ مسلم سعى للجنة دار الخُلود

مقدّمة

حروف تجمعت فأتجت كلماتًا جسّدت واقعا.

هي لك الآن بين يديك ، ربما وجدتها على الرف واخذت تتصفح بعض أوراقها.. لمن تخطّوا المقدّمة بكلّ ملل ، هنيئًا لكم فقد استغللتم بعضا من وقتكم..

بين الطيات ستجد الألم.. وتجد الأمل.. ستجد الظلم.. وتجد القسط.. ستجد الفرج.. ستجد الفرح.. فصبر جميل..

رأيت في الشيخ أحمد بعضا من شخص كان من حملني ولمواجهة هذا العالم دفعني.. وابن التائبة رأيت فيه نفسي.. قد وقعت في غرام رمية ، ورأيت المجهولة في ذات الصوت الملائكي المبتسمة ، صادق صرخ في وجهي أن كن رجلا ولا تمت إلا محقّقا ما وعدت.. تركت الجرّاح يرسم على القلب بشاشته.. والأربعينيّ علمني درسا.. وأخ أحمد يشبه شخصا..

أيمن بوربالة

شبحُ الوداع

- فلنلعب لعبة الأسئلة من جديد..

- مجدّدا ؟!

- نعم ، أرجوك !

- حسن ؛ كم عمركِ ؟

- سبع سنوات.

- هل تفضلينَ قضاء العطلة مع جدّتَك أو معي ؟

- معك... لدَيها فمٌ كبير مرعب ، وتستطيعُ اقتلاع أسنانها منه..

-إنّه طاقم أسنان ، وليست أسنانا حقيقية ؛ رُمية ، هل تحبينني يا بُنيَّتي ؟

- جدًّا جدًّا.

- كمْ ؟

- بقدر ما أُحب الطيران وأمي.

- هل ستُغادِرينني يوما ؟

- أبدًا..!

- ستكبرين وتغادرين..

- لا.. لا لا!!

- وعندما تتزوجين وتُصبح لك عائلة وزوج ومنزل خاصٌ بك ؟

- لن أتزوج...

- وعندما أغادر أنا ؟

- سأتبعك.

- وإن كنت غادرت هذه الدنيا ؟

- سأتبعك إلى الفضاء.

- حتى الفضاء ؟ لم كل هذا التعب ؟!

- لأنّني أحبك بابا!

بعد 20 سنة

كثيرة هي الكلماتِ التي نَسمعُها تُخفي معنى أكبرَ ممّا تُظهره أحرُفها ، ولم نكن لنفهمها ، كثيرةٌ هي الوعود التي قطعناها ولم نستطع إيفاءها ، كثيرةٌ هي القلوب التي كسرناها ولم نستطع جبرَها ، وعندما يغيبُ كل شيء ، ونستيقظ على واقعنا المدَّمر الذي مهما حاولنا إصلاحه لا نستطيعُ جبرَ ولو شقٍّ فيه ، كل ما سنملكهُ بين أيدينا هي الذكرياتُ التي نتمنّى نسيانها ، لأنّها تؤرق ليالينا وتعيد لنا ما فات دون فرصةٍ لتغيير أيّ شيء منه ، مجرد جرعةٍ من الألم.

- هل طلبتني يا سيدي ؟

- ادخل يا صادق ، كم مرة أقول لك أن تدعوني بأبي.

- أعلم ، لكنّنا في العمل ولا أشعرُ أن ذلك لائِق.

- هذه شركتي ، ومن لم يعجبه الأمر يمكنه أن يُقدّم استقالتهُ ببساطة.

- رُمية لا يعجبها الأمر عندما أُناديك بأبي.

- أعلم ، لقد كنت أُفكر فيها للتو ، لكن آه ، أين هي يا تُرى!

- ألم تتلقَّ أخبارًا منها بعد ؟

- ليس بعد ، لقد كانت تختفي لأسبوعٍ أو شهرٍ على الأكثر ، لكن ليس لكل هذه المدة.

- أنت والدها ، لا زلت لا أفهم لم لا تضعها عند حدّها.

- لأنّني كُلّما حاولتُ لمسها ، تراءت لي إمّا صورة زوجتي الراحلة ، أو صورتها وهي طفلة ، لا أدري ما الذي غيَّرها ، وكلما حاولت الحديث معها رفضت ، أنا أسوء أب ، لو كنت مهتما بها بحق لما حدث كل هذا.

- أبي... لقد رعيتنا أنا وأمي بعد وفاة أبي ، وآويتني بعد وفاة أمي ، اعطيتني فراشا في منزلك ، وعملا في شركتك ، ثم جعلتني ابنك بكل ما تحمله الكلمة من معنى ، ولم أر يوما فيك إلا أحسن أب لها ولي ، ما يحصل معها هو مشكلتها.

- ولهذا أريد منك أن تتبعها وتبقى معها ، هذه أول مرة تغيب لسبعة أشهر !

- أنا ؟ إنّها لا تطيقني..

- لكنك الوحيد الذي تعرفه هي بما يكفي لتترُكَه يقترب.

- هل تعرف أين هي ؟

- لا ، سأعرف هذه الأيام ، هل أنت موافق ؟

- ... حسنا ، أنا موافقٌ أبي ، فقط لأُريح بالك.

****

"اترك رسالتَك الصوتيّة بعد سماع الإشارة"

- عزيزتي ، أنا أعلم أنّك هُناك تستمعينَ إِليَّ وتَحملين هاتفك بيدِك الآن ، لا أدري أيّ ذَنْب اِرتكبتُه لأحرَم من سماع صوتك العذْب ، أنا أَبوكِ ، وكل ما أريدُه هو الاطمئنان عليكِ ؛ كل مرّةٍ أسمعُ فيها صوت المُسجلة جزءٌ مِنّي يمُوت قليلا داخلي ، كيف لا وأنا أعلم أنَّ اِبنتي الوحيدة تتجاهلُني! لا أدري إن كان الأوانُ قد فات لاستخدام هذه البطاقة لكن... إن كنت تحبينني يا عزيزتي ، فدعيني أطمئن عليكِ ، ارسلي عنوانكِ لي وسأرسلُ صادِق ليقضِي بِضعةَ أيامٍ معك ، أعدُك أنّه ليس هناكَ خُدعة أو زِيارة مُفاجئة... فقط صادِقْ. أُحبك ابنتي ، وأدعو لك بالسلامة.

****

نَعرفُ حق المعرّفة أنَّ مُواجهة مَخاوِفِنا هو الحل الوحيدُ لها ، لكنَّنا دائما ما نَجدُ أنفُسنا نهرب في الاتجاه المعاكسِ لها ، حتَّى وإنْ أقنعنا أنفسنا أنّنا لا نهربُ مِن مُواجَهتِها ، فإنّنا نفرّ منَ الحقيقة التي تحملُها بين طَيَّاتِها وخاصة إنْ فشِلنا في المُواجهة ، نستيقظ يوما ما وقد أخذت السِنين ما يكفي مِن أعمارنا كي لا نستطيعَ مُواجهةَ هذه المخاوف ، لكنَّها أبقتْ منَ العُمر ما يكفي لنا كي نعيشَ في ألم الندم حتى تَضمحِل أَجسادنا تحت التُراب ، قد نقضي مُعظم أيام حياتنا نُحاولُ القِيام بما يجعل الناس يحبوننا ، ولكن إِن لمْ نُواجه مخاوفنا ، فلن نُحب أنفسنا مهما طال عيشنا ، بل سنصلُ إلى مرحلة القرف منْ أنفسنا ، أرواحِنا وملمس أجسادنا ، ومن جديد ، مُحاولة الهرب مِنها بأيّة طريقةٍ مُمكنة ، نقضي بِضعَ حياتنا في تعلم ما لا يجِبُ فِعله وقليلٌ ممَّا يجبُ فعلهُ ، وباقي حياتِنا في تَجاهُل كل شيءٍ والهَرَب.

وقف "صادق" أمامها بعد أنْ فتحت لهُ باب غرفتها في جنَاح الفُندق الذِي تمكثُ فيه ، ببذلته السوداء وربطة عنقه الحمراء ، يُخفي

سود مدامعه القاتِمتين بنظارة شمسِية أَقتم من عينيه ، يمرّر يدَهُ تارة على شعره الأسود وتارة يحُك بها لحيتهُ مَذهولاً ممَّا يراهُ أمامه ، هوُ لم يرَ شيئًا مِنها سوى بطنها.

- أنتِ حامِل ؟!!

****

في مكتب السيد "عماد" دخلت عليه سِكرِتيرته مَرام

- سيدي ، الطبيب هنا.

- جيد ، في الموعد تماما ، ادخليه.

****

- سأتصل بأبي الآن وأُخبره.

- لا ، لا تفعل أرجوك.. !!

- هو مريض!! تركتِه يظن أنّه أسوء أبٍ عاش يوما ، يظن أنّكِ تكرهينهُ ، وأنّه أخطأ في حقكِ ، وأنتِ..!!

- أرجوك يا صادِق ، أتوسلك ، اسمعني أولا!!

****

- إذن ، ما الجديد يا دكتور ؟

- للأسف ، ليست أخبارا جيدة..

- اخبرني!

- أنت تُعاني مِن فشلٍ قلبِي..

نظر عِماد إلى الطبيب نظرة مطولة ، ثُم اتّكأ على كرسِي مَكتبِه وتنهدَ بعُمق كأنَّ ثقل الخبر سقطَ عليه بقُوة.

- كيف يكون هذا ؟!

- ليسَ لديكَ مِن عائلتك مَن عانوهُ قَبلا.. لكن فشل القلب قد يأتي مِن أشياء عديدة كصدمة قوية.. أو حزن شديد..

- ما الذي يجبُ عليَّ فِعله ؟

- أولا ، يجب علينا أن نأخذك للمستشفى كي نراقبك عن كَثب ، ثُم نضعك على لائحة الانتظار لقلبٍ جديد.

- هذا فقط ؟

- أنت رجلٌ غني يا سيد عِماد ، بالمبلغِ المُناسب تستطيعُ شِراء قلبٍ جديدٍ أو حتَّى الصعود إِلى أعلى اللائحة.

- لقد عملتُ طيلةَ حياتي لأجلِ أن أشتري الخُبز وأضعهُ على طاولةِ عائلتي ، لا كيْ أشتري وقتا من حياتي بحياة الآخرين.. ضعنِي على لائِحة الانتظار ، وأنا سأنتظرُ هنا.

- لا. سيد عماد ، يجب عليكَ أن تبقى تحت المُراقبة.

- إِن قدَّر الله لي الموت بهذا البلاء ، فلا أُريد الموت على سريرٍ في مستشفى ما.

- أنتَ في الأربعين من عُمركَ. لا يزال أمامك وقتٌ طويل ، لكن عليكَ أن تستَمِع..

- أنتَ اسمعني ، ضعني على لائحة الانتظار ، وأنا سأنتظر هنا ، أيّهما يأتي أولا ، القلب أم الموت.

- حاضر سيدي.

- قبل أن تذهب.. ابق الأمر بيننا.

- حاضر سيدي.

****

- ما الذي دهاكِ ؟! كنتِ ملاكا يفتخر بك أبوكِ والآن أنتِ مجرد زانية هاربة من المنزل وحامل..!

- أنت لم تفهمني يوما!

- لقد كنتُ مشغولا بإعادة حاجياتي إلى المنزل بعدما كنتِ ترْمينها لي كل يومٍ خارجا.

بدأتْ رُمية بالبكاء بصمت كأنَّ عَيْنيها تحاولان قَوْل ما لم تستطِع الكلمات التعبير عنه ، عَيْناها كانتا تقولان أنّها حتى رُمية بحدّ ذاتها لمْ تكُ تفهمُ نفسها ، فاختارت الهرب بدل المواجهة ، صادِق كان من النوعِ الحساس ؛ كانت حساسيته المفرطة إرثه الوحيد الذي تركته له أمه الراحلة ، اقترب من رُمية ومسح عينيها اللتين تحاولان تفادي النظر إليه.

- دائما ما كنتِ تستعملين الدموع كسلاح.. أنتِ تعرفين أنّها نقطة ضعفي.

- أكره البكاء..!

- أنا هنا الآن ، وأنا مستعدٌّ للفهم ، فتوقفي عن البكاء..

- كيف تشرحُ شيئًا كنتَ تتفاداهُ طيلة حياتك وتركتهُ ينمو داخلكَ حتى فقدت السيطرة عليه وأخذ هو السيطرة عليكَ في النهاية ؟

- مهما كان هذا الشيء فلن أستطيع فهمه على معدة فارغة ، ما رأيكِ بمطعم جميل وشريحة لحم تكون بحجم بطنك ؟

مهما ازعجته ، أو حاولت إيذائه ، هو دائما ما كان ينجحُ برسم البسمة على وجهها ، دائما ما تميزت ببراعتها في تفادي الهزيمة وما يصاحبها من عدم تدارك للنفس.

نظرت إليه بوجه جادٍّ وهي تتحدى خذلان نفسها لها وسقوطها فريسةً للخجل ، حتى وجهها استحال أحمرا ووجنتاها منتفختان ، طفوليّة هي عند التحدي:

- أنتَ أحمق.

- منذُ الخطوة الأولى التي خطوتها داخل منزلك!
- ستظل كذلك إلى أن أموت.
- سيتكفل أبي بذلك.
- توقف عن دعوته بأبي!

في مرحلةٍ ما من الحياة ، نصلُ إلى نقطة أين نضع فيها القلم ونعتزل كتابة سُطور حياتنا ، ونتوقف.. ليس رغبةً منّا ، بل غصبا عنّا ، فنحن أنفسنا عالقين في وسط جبال من العوائق صنعناها باتخاذ قرارات خاطئة.. الواحدة تلو الأخرى ظنًّا منا أنّه لا يوجد خيار آخر غيرها ، نتوقفُ من غيرِ طريقٍ غيرَ الطريقَ التي لم يعد بإمكاننا السير عليها ، ومن غير صبر كافٍ يدفعنا لذلك ، عندما نصل إلى تلك المرحلة لا نريد فرصة ثانية لنعيش من جديد ، ولا نريد القوة لنستمر ، ولن نسأل طريقا جديدا أيسر من الذي نحن فيه ، كل ما نريده في تلك المرحلة هو الراحة لأنّنا في غاية التعب.

حتى مع كل الضوضاء القادمة من الشوارع ، وحديث المارة العالي ، وأصوات السيارات ومحركاتها ، كان الجو داخل سيارة صادِق هادئًا بما يكفي ليجعل كليها يشعران بعدم الارتياح ، لكن رُمية كانت شاردة الذهن كأنها لا تُبالي ، اخرجتْ يدها من نافذة السيارة وتركت الرياح تداعبها ، كأنّها تشعر بها لأول مرة.

- أنا لا أكرهكَ حقا ، أ تعرفُ هذا ؟

- نعم أعرف ، لقد ذكرتِ هذا مرة أو اثنتين في مذكراتكِ عندما كُنا في الثانوية.

- قرأتَ مذكراتي ؟! الآن أنا أكرهكَ حقا!

- لقد كنتُ قلقًا عليكِ ، ابتعدتِ عن صديقاتك وكنتِ لا تخرجين من غرفتك إلا أحيانا ، لذا قرأتها واكتشفت أنّك كنتِ تُدخنين خلسة.

- لماذا لم تُخبر أبي ؟

- كنتِ ستكتشفين أنّني أقرأ مذكراتك ، كنتِ ستكرهينني أكثر ، كما كتبت أنّكِ تقيأتِ بعد أول سيجارة ، وتوقفتِ بعد ثلاثة أسابيع.

- لا أدري لماذا بدأت بالتدخين ، أظنّني أردت فعل شيء مختلف في حياتي كيْ لا أُحس بقيودِ الروتين.. كم كنتُ غبية! ماذا قرأتَ أيضا ؟!

- قرأتُ أنّ كل القصص التي كنتِ تخبرينني بها عندما جئتُ صغيرا.. عن الجن الذي يسكن غُرفتي ، والمنزل.. كلّها من نسجِ خيالك.

- آه ، نعم أذكر ذلك ، أنا فخورة بتلك القصص جدا.

- أنا لست كذلك ، لقد جَعلتني تلك القصص أبلل سريري أكثر من مرة ، ثم اخبرتِ المدرسة كلها بذلك.

- "مروان" لقبكَ بـ "البَلَلْ" لأجلِ ذلك.

- لكنه توقف عن مضايقتي بعد أن ابرَحتِهِ ضربا تحت مُدرّج الرياضة ، هذا دليل كافٍ على أنّكِ تُحبينني.

- أنا لم أكتب هذا في مذكراتي ، كيف لكَ أن تعرف ؟!

- لقد رأيتكِ.

- لماذا لم تقل شيئا ؟

- لا أدري ، لقد كنا دوما نرعى بعضنا البعض خِفية ، لم أكن أريد أن أفسد ذلك.

غلب الصمت على كليهما للحظة قبل أن تبدأ رُمية بالكلام من جديد.

- لقد كنتُ دوما صغيرة أبي بعد وفاة أمي ، كنتُ أنا قرَّة عينه وكلّ همِّه. لقد احببتهُ أكثر من الحياة نفسها ، ولا زلتُ أفعل ، ثم أتيتَ أنتَ وكنتَ أصغر مني ، وأجملَ بكثير وأظرف ، تقومُ بكل شيء دون أن يُطلب منكَ. هادئٌ وقليل الكلام ، قليل الطلبات ، ومتفوقٌ في المدرسة ، تُنظّفُ المنزل وجميع الغرف كل يوم لأكثر من مرة ، هذا جعل أبي يحبكَ ويفخر بك ، إهتم بك لدرجة أنّه كان يراقبكَ حين تنام ، حتى أحسستُ أنّه نسِيَني..

- أ تمزحين؟ حين كنتِ ترفضين الخروج معنا ، كان كل همه هو أنتِ. "ماذا أحضر لها؟ لا بد أن نعود قريبا كي لا تحس بالوحدة.. لو كانت هنا لأحبَّت ذلك ولطلبت مني شراء تلك..."

- أعلم أنّه يُحبني ، لكنّني.. أظن أنّني لم أعتد على كوني في المرتبة الثانية ، وكلَّما سعيتُ لنيل حبّه أكثر ، زاد حُبي له كنتيجة لسعْيي. لأنّني لم استطع التفوق عليكَ في كل تلك الأمور الجيدة ، سعيتُ للَفت أنظاره باتخاذ القرارات السيئة وفعلها المرة تلو الأخرى لعلّي أبدو مدمَّرة بما يكفي ليهتم بي أكثر منكَ ، ما لم أُدركهُ هو أنّني بتلك القرارات السيئة التي ظننتُ أنَّني أتحكم بها ، تحكَّمتْ بي ودمّرتُ نفسي حقا إلى درجة لم استطع فيها إصلاحها أو العودة لِما كنتُ عليهِ سابقا ، بدأتُ التدخين وسرقة المال من جيبه فقط للمتعة ، والخروج مع الشبان.. بدأتُ ألبس ما أُريد.. وأتعذّر بأيّ سبب.. لكنه أبٌ رائع.. لم يلمني ويصرخ عليَّ ، بل لام نفسه وأحس بالذنب ، كأنَّه خان الوعد الذي قطعه على أُمي.

رغمَ الابتسامة المرسومة على وجهها الشاحب البديع ، إلا أنّ الدموع كانت قد اغرقت عيْنيها وزادتها جمالا ، بقيت رُمية تمسحها وتبتسم كأنَّها تقصُّ في ذكرى سعيدة لا تهمها ولا تؤذيها ، أبقى صادِق

عيْنيه على الطريق فقد أحس أنَّها لا تُريد أن يراها أحد ضعيفةً بذلك الشكل ، لا أحد يريد أنْ يبدو ضعيفًا أمام أحد ، حتى الذين يُفترض بهم أنْ يكونوا سندا لهم ، غريبٌ كيف أنَّنا أحيانا نسعى لكسب حب واهتمام أقربِ الناس إلينا ، لكنَّنا ننتهي بإيذائهم الأكثر! ، هكذا فسر صادِق الأمر في عقله قبل أن تُقاطع رُمية سير أفكاره بالكلام مجدّدا والابتسامة على وجهها تُحاول إخفاء بلل عيْنيها.

- أيُّ نوع من الرجال يُنظف كلّ ذلك القدر على أيّة حال؟! معظم الرجال يُحبون الفوضى.

- أُحب الفوضى أحيانا ، لكنّني لا أُحب الأوساخ.. فرق كبير.

أحسّ من صمتِها أنّ إجابته كانت سطحية أكثر ممّ ينبغي ، فحاول إصلاحها قبل أن تُحسّ رُمية بضعفها وتتوقف عن الكلام طيلة الليلة أو حتى لأيام.

- رُمية ، قُتل أبي على أيادي من يُفترض بِهم حمايتهُ فقط لأنَّهم اشتبهوا به كإرهابي ، قُتل أمام عينيّ ، قد رأيتُ شمعة الحياة تنطفئُ

في عيْنيه وهو يحاولُ التمسكَ بالنورِ قدر ما يستطيع.. يحاول أن يأخذَ نفسا بائسا آخرا من هذه الحياة وهو يبْتسم لي كأنّه يُحاول أنْ يُشعرني أنّ كلّ شيء سيكون على ما يُرام ، رِجلاه ترتجفان بقوةٍ أمامي وأنا لم استطع حتى الحَراك ، كان منظرا مُهوِّلا لدرجةِ أنّني خِفتُ الاقتراب من أبي.. من أبي!.. وكلّ ما أراده هو أنْ أُبادِلَهُ الابتسامَ ليَرتاح ، لكنَّني لم أفعل. عندما رحل وللآن ، ندمي هو أنّني لم أبتسم في وجههِ أكثر ، ثم انفقَت أمي كلّ أموالنا لتُثبت أنّ زوجَها بريء ولم يكُن سوى إنسانا طيبا وزوجا مثاليا وأبا رائعا ، عندما أثبتَتْ أنّ الذي أطلق النار عليه كان مجرّد شُرطيّ كارهٍ لأصحابِ اللحى والسُّنة ، ماتت على فراشِها مُبتسمةً لتلتَحِق بزوجها ، بين الابتسامة والابتسامة ، حدث كلّ شيءٍ بسرعة إلى أنْ وجدتُ نفسي وحيدا لا أدري ماذا حصل ولا كيف حصلت كلّ تلك الأمور أمام عيني وأنا واقفٌ مكتوف اليدين ، ثُم احضرني أبوكِ إلى المنزل أين أحسستُ أنّني مجردُ غريب متطفل.

رُمية..أنا أنظفُ ليس لأنّني أكرهُ الفوضى أو لأنَّني أحب التنظيف...أنا أُنظّفُ لأنَّ قُدرتي على السيطرةِ على الفوضى التي حولي تُعطيني حِسًّا زائِفًا بقدرتي على السيطرةِ على الفوْضى في رأْسي.

توقفّ صادِق عن سرد ما اخفاهُ لسنين أمام رُمية والسيد عماد لينظُر إليها ، فوجدها بعيْنين لا تبكيان سوى الندم لجعلهِ يشعرُ بالغُربة في منزلها ، لم يكُن يُريد زيادة الطين بلّه.. لم يكن يُريد لها أن تشعر بمقدار الألم الذي سببتهُ للجميع.

- عليكِ أن تعترِفي على كلّ حال..

- بماذا ؟

- أنا أُنظف وأطبخُ وأغسلُ.. كنتُ لأَكون رجُل بيت مِثاليٍّ.

- أتقصد "ربة منزل"؟

- أليس ذلك اللّقب للنساء ؟!

ابتسمت رُمية ثم خرجتْ منها ضِحكة صغيرة رُغم إرادتها لعدمِ قُدرتِها على كبحِها ثُم قالت:

- ستكون يوما ما..

****

- رُمية ؟ ما الذي ايقظكِ في هذهِ الساعةِ المُبكرة ؟

- لقد كنتَ دائما توقظني بضوضائك عندما تستيقظ لصلاة الفجر.. أُحب مُشاهدتك تُصلي.

- رُمية ، لن أُخبر أبي بشيء حتى تتضّح الأمور لنا ، لذا هل يمكنكِ التوقف عن معاملتي بلطف ؟ ذلك يُشعرني أنّك تحتضرين لا ترزقين بطفل.

عبارته تلك أطفأت الابتسامة من على وجهِها.

- لقد اخفقتُ ، أليس كذلك ؟

- لقد اخطأتِ ، لكنكِ كنتِ لتُخفقين أكثر.

- كيف لي أن أُخفق أكثر من هذا ؟

- حسنا.. كنتِ تستطيعين التخلص من الطفل وحرمه من الحياة ، لكنَّك ابقيته رغم كل شيء.

بِجمعٍ من الكلمات القليلة رسمَ البسمة على وجهٍ ساحر الجمال ازداد سحرًا ببسمته ؛ مرَّرت يدَها عبْر شعرها الذهبي وطأطأت رأسها ، ثم قالت بصوت جدّ خافت:

- لماذا لم تنْصحني يوما ؟

- بماذا ؟

- بالصلاة.. بالحجاب ، بالتوبة.. ما توجب عليك فعله..

- أعرفُ أنّهُ كان عليَّ ذلك ، لكنني احسستُ أنَّه ليس بإمكاني القيام بذلك.. إن كنتِ تفهمين قصدي.. أظنُّني كنتُ خائفا.

- كان يجب عليك نُصحي ، ليس مهم من كنتُ أو كيفَما كانَ ردّي اتِجاهَ نُصحِك ، فعندما يصلُ الإنسان للمرحلة التي وصلتُ إليها أنا في حياتي لشدّة غبائي ، كلُّ ما يتذكرهُ هو نصيحةٌ سمِعها ولم يُصغ إليها ليتّبعَها ، وكلُّ ما يريد هو نصيحةٌ تُرشده إلى الطريق التي يجب عليه اتّباعها ، أو على الأقل تُرشدهُ إلى خطوته التالية..

- سأُبقي ذلك في البال ، ما هي خطوتنا التالية لليوم ؟

- هل عليكَ أن تَبقى معي كلّ الوقت ؟

- كظلّك..

- ذلك مُزعجٌ لعقلي.. ومريحٌ لقلبي في نفس الوقت.

- ذاك الفرقُ بين من يُحب الوحدة ويكرهُ أن يكون وحيدًا في الوقت نفسه.

- حسنا إذا ، سنذهب للمستشفى للقيام ببعض الفحوصات والمعاينات الخاصة بالطفل.. وأشياء أُخرى ، ثم نعود إلى هنا ونبقى مختبئين إلى أن يموت ضوء النهار ، أعلم أنّكَ تُحب البقاء داخل المنزل.

- وفي الليل ؟

- ...ستقُود..

****

- السلام عليكم. كيف حالك ابني ؟

- وعليكم السلام ورحمة الله ، الحمد لله أبي ، كيف حالك أنت ؟

- الحمد لله على كل حال ، كيف رُمية ؟

- الحمد لله.. إنّها حيّة وتتنفس..

- الحمد لله.. الحمد لله ، هل بإمكانك تمريرُ الهاتف لها ؟

- إنها تستحم أبي ، لكن بإمكاني تبليغها رسالتك.

- لا داعٍ ، فقط حاول أن لا تعود إلا وهي معك ، هناك أخبارٌ جديدة تحتاجُ حضوركما كليكما.

- هل كلّ شيء بخير ؟

- لا شيء يستحق العجلة.

- حسنا أبي ، سأفعل.

- بارك الله فيك ابني.

- وفيك بارك الله أبي.

- من كان المتّصل قبل قليل ؟

- أبي.

- ماذا أراد ؟

- الاطمئنان علينا ، وأراد الحديث معكِ إن أردت إعادة الاتصال به.

- لا..

- أ تعلمين ؟ لشخص تدِّعين حبَّه بشدة ، أنت تُبعدينه عنكِ بكل ما أوتيتِ من قوة.

- كيف يُفترض بي التحدث معه أو مقابلته أو حتى النظر إلى عينيه وأنا أعلم أنّني لم أكُ سوى مجرّد خيبة أمل كبيرة له ؟!

- لا يهم كيف ستُقابلينه ، بل كيف سيقابلكِ هو... بحضنٍ وابتسامةٍ وسعادةٍ..

- وهذا سيجعلني أشعر بكره أكبر لنفسي ، أنْ يُعاملني كأنَّني ابنته التي كان يراها تركض في أرجاء المنزل ضاحكةً وأنا لم أُرِه سِوى الحقد

- هل تُدركين مدى تضارب الأقوال التي تقولينها بين الليل والنهار ؟!

- أُدرك يا سيد فيلسوف ، أُدرك... هلّا ذهبنا ؟

- حسنا سيدتي...

*****

- سيدة رُمية ، الطبيب جاهز لك.

- جيّد ، صادِق ، ابق هنا ، فأنا لا أدري متى أعود.

- تماما مثلما كُنّا نتسوق في الماضي.. صحيح يا.. سيدة ؟!

- اصمت... أحمق!

دخلت رُمية على الطبيبة النسائية غير مُهتمة بما قالته بنبرة كأنها يُفترض بها إسعادها.

- الطفل في صحة جيدة.

- حسنا..

- الولادة قريبة ، وستدخلين في المخاض بعد أسبوعين على الأكثر.

- جيد.

- كوني مستعدة واعتني بنفسك جيدا.

- سأفعل..

بعد خُروجها من مكتب الطبيبة ، صعدتْ خِلسة إلى الطابق العلوي ودخلت مكتب طبيب اسمه حسَّان.

- هل نتائج الفحوصات جاهزة ؟

- هي جاهزة ، اجلسي سيدة رُمية

- لا داعٍ.

نظر إليها الطبيب نظرة مطوَّلة ثم نزع نظَّارته الطبّية ووضعها على مكتبه وقال بنبرة حزن:

- للأسف ، النتائج لا تبشر بخير ، السرطان قد تمكّن منك أخيرا

غلب عليها الصّمت برهة وهي تمسح عينيها ولا تدري كيف يفترض بها أن تتفاعل أمام خبر كهذا ، جزءٌ منها أراد أنْ يُقلّب المكتب رأسا على عقب غضَبًا ويأْسًا ، والآخر منها أراد فقط أن يتم حضنها بقوة تمحي خوفها وغضبها ، هُناك صادِق منْ يستطيع حضنها ، لكنها لا تستطيع طلب ذلك منه ؛خف نبض قلبها حزنا وترسّمت الكآبة على ملامحها ؛ تتساءل كم بقى لها من الحشاشة ؟

اختفى اللمكتب تدريجيا وتلاشى معه صوت الطّبيب ؛ اختفى العالم حولها وتحوّل إلى ليل أدلم دامس لا دفء فيه ولا هواء ، كانت

وحيدة ؛ كلّنا سنموت ، سواء الليلة أو اليوم أو غدا ، لكنّنا دائما ما نُغري عقولنا ونخدع ضمائرنا بأنّ الموت بعيد ، ولا نستيقظ إلّا عندما تطرق المنيّة أبوابنا ونحن في الضّيق نتيه.

أيقظها صوت الطّبيب مناديا باسمها

- سيّدة رميّة ؟

- أعتذر ، ماذا كنت تقول ؟

- علينا أن نُخضعك للعلاج الكيماوي فورا.

- وطفلي ؟!

- يصعبُ معرفة ذلك في هذه المرحة من الحمل وتطور السرطان

- هل لديَّ فرصة ؟

- للأسفِ لا ، العلاج الكيماوي سيُقلّل انتشاره ، لكنه لن يقضي عليه

- إذًا سأموت في كلتا الحالتين ؟

- نعم.

- كلنا نحتضر نوعا ما ، أليس كذلك ؟! وأنا لن أُنقذ نفسي من الموت عدّة أيامٍ أو أشهرٍ وأُخاطر بحياة سنينٍ كاملةٍ للطفل داخلي.

قالتها بابتسامة جدُّ مُتقنة حتى أخفت ملامح الصدمةِ على وجهها.

- طفل وسرطان.. بداية حياة ونهاية أخرى من الجسد نفسه.. لابدّ أن زوجكِ في أسوأ حالاته.

نظرت رُمية إلى الخاتم الذي تضعه حول إصبعها دفاعا عن نفسها ضد أنظار الناس إليها ، وعادت إلى الليلةِ التي اكتشفت فيها حملها ، اخبرها "علِي" ، أبُ الطفل ، أنْ تُجهض ما في بطنها ، فأبت ، لم يكن بمقدورها قتل مخلوق بريء لا ذنب له كالطفل الذي في رحِمها ، ولكن كان بمقدورها قتْل الذكرِ أمامها الذي اختفت ملامح الرّجولة والإنسانية الكاذبةِ فيه وظهرت أنيابُ الحقيقة ، وذلك ما فعلتْهُ بعد أنْ حاول مُهاجمتها وضربها على بطنِها في مُحاولة منه لتُجهِض ، ممّا دفعها لطعنه بقضيبٍ حديديٍّ وجدتْهُ مدفونا تحت التراب.

استيقظتْ منْ تلك الذكرى وقالت:

- نعم ، إنّه في أسوأ حالاته.. ميّت.

- آسف لسماع ذلك.

- لا تأسف ، كان حقيرا لا يُحبه أحد ، ولا حتى أنا.

****

بينما كان صادِق يقودُ ويختلسُ النظر إليها وهي مُخرجة رأسها وكلتا يديْها من على النافذة ، لم يسعه أن يلحظ سِوى مدى صدْق الابتسامة على شفتيْها في تلك اللّحظات ، لم يكن يدري لمَ تُحب هذه الجولات الليلية ، كأنّها وسط ذلك الهدوء العارم تحت أنوار المصابيح في أواخر اللّيل.. كانت تطير دون جناحين ، كلُّ همومِ الدنيا ومشاغلها ، كلّ مشاكلها وعثَراتها ، اختفتْ في تلك اللّحظات ، كأنَّ الزمن بمفهومه غيرَ موجود. واضح عليها أنّ كلّ ما تُريد هو راحةُ البال ، كان لا يُصدّق أنَّ مثل تلك الفوضى العارمة محبوسةٌ داخل جسدٍ بمثل ذلك البراءة والجمال والهدوء ، لم يقتنع أنّ كل ذلك الهرب من مكان لآخر ، من فكرة لأُخرى ، من مُشكلة لمعضلة أكبر

من غيرها ، لوحدها ، وُجدوا في جسمٍ بمثل ذلك الضُعف والإرهاق ، عيناها البريئتان ، ووجهُها البديع الشاحب ، لا يصرخان سوى بالتعب ، عاصفةٍ من الانهيار ، تحت ابتسامة بالية.. كلَّ تلك القوة ، مختبئة خلف عيونٍ دامية ، كانتْ لوحة فنية يُنظرُ لها بعمقٍ لسنين ، ولا يُعرف منها إلا القليل.

- ادخلي إلى هنا ، لا أظن أنّ ذاك الهواء البارد مفيد لصحتك.

لم تُجبه ؛ أعاد طلبه ، فلم تجبه من جديد ؛ لم تكن تتجاهله ، بل لم تكن تسمعه.. لم تكن هناك ، تركت قالب جسدها وحلّقت خلف الغيوم ، أرادت أن تُحلّق بشدّة لدرجة أنّها تخطَّت التخيّل ، وتعدّت الحُلم ، فصنعت لروحها جناحين وذهبت إلى هناك.. كانت قد حلّقت.

أخرج صادِق هاتفه وأخذ صورة لها ، وضع يديه على عجلة القيادة مُجدّدا ، وبقي يركز مع الصورة تارة ، والطريق تارة أخرى ، حتى قاطعته رُمية وقد عادت إلى مقعدها.

- أنت لا تُصدّق.

- ماذا ؟

- أنا هنا أمامك ، وأنت تُصورني وتنظر إليَ في الهاتف ؟

- الصورة تدوم أكثر ، وتُعيد لي هذه اللّحظات.

- لكنّكَ ستُعيدها دون المشاعر التي تشعر بها الآن ، مع الوقت ستنسى المشاعر التي شعرتَ بها هنا ولن يبقى لك سوى الجماد.. الفراغ الموجود في الصورة والفراغ الذي خلّفهُ غياب من فيها ، أنا أكرهُ الصور.. لا تجلبُ لك سوى الألم على أوقات وأشخاص ضاعوا مع الزمن ولم يُبْقوا خلفهم سوى الذكريات.. في النّهاية ، حتى السعيدة منها تُؤلم ، أليس التصوير حراما ؟

- تعلمين أنّ الصّور نقطة ضعفي..وأيضا ، العلماء اختلفوا في معاني أحاديث الّرسول صلّى الله عليه وسلّم فيما يخص التّصوير.

- توقفْ عن مُحاولة إمساك اللحظات وابدأ بِعيشها.

نظر صادِق إليها لأنَّه أحسّ بالرّعشة في صوتها ، فوجد دمعة سالت على خدّها الشاحب الصافي ، طأطأت رأسها فسقط شعرها الذهبي ليُغطي كامل وجهها ، أوقف السيارة جانبا ورفع شعرها من على وجهها ليمسح تلك الدمعة الهاربة من سجن التظاهُر ، احسَّت بلمسة يده الباردة على خدّها ، فانتابتها موجة من المشاعر جعلتها تبكي بقوة وتغمض عينيها المبلّلتين كأنّها تحاول ابقاء الدموع مسجونة.

- ما الخطب رُمية ؟

- ما الخطب ؟! ما الذي على ما يرام ؟!

- هذه مُجرّد حياة ، ستتضحُ الأمور لاحقا ، الأمر بسيط..

- حتى في أبسط الأمور التي نراها ، هناك عُقدٌ تعجزُ عقولنا عن مُعالجتها.

- سنُعالج كل شيء ، ستتّضحُ كلّ الأمور مع الوقت.

- لا يوجد وقت ، لنْ يسعَني إصلاح أخطائي أبدًا ، لقد اخفقت..

قالتها بهدوء وبرودة تقشعرّ لها الأبدان..

- ماذا تقصدين ؟

- لن أستطيع إصلاح الأمور مع أبي ، لن أستطيع إصلاح حياتي ، أنا مُجرّد خيبة أمل للجميع ، حتى نفسي. لا أدري إن كنت عدُوة الجميع أو عدوة نفسي ، لا أفهم أيّ شيء ، كأنّني في متاهة كلّ طرقها مسدودة بالألم.

أحيانا تلك هي الحياة من وجهة نظرٍ واحدة ، الحياة عبارة عن متاهة ، إنْ كنت ذو إيمان فسيقودك نور إيمانك إلى مخرج المتاهة لتقضي آخر أيامك مطمئن البال متعرّق الجبين من تعب صبرك في حمل مصباحك ، نور إيمانك ، دينك ، إذا كنت على غير ذلك أو بإيمان فاسد ، فستموت وسط تلك المتاهة حائرا وضائعا بين الهم والآخر ، المشكل وغيره ، الوهم ومطاردته ، دون أمل أو حلٍّ ، ولا طمأنينة ، كجرذ خائف أحاطته النيران من كلّ مكان ، يركض ويركض باحثًا عن مخرج ، لكن نهاية المتاهة لا تعني بالضرورة مخرجها ، تلك

هي الحياة ، مجرد متاهة تقودنا فيها قراراتنا التي تعتمد على صحة ديننا وقوة إيمانا وحسن ظنّنا بالله.

- رُمية ، أبي.. السيد عماد لا يزال ينتظركِ كلّ يوم وكلّ ليلة ، حتى بمجرد مكالمة هاتفية.. بإمكانك إصلاح كلّ شيء.. أحيانا عندما يزوره الاشتياق ، ينام بغُرفتك ، يقول لي دوما ألّا أُنظِّف غرفتك كي تبقى رائحتكِ في أرجائها ، لا يستطيع النوم دون رائحتك.

- أنت فقط لا تفهم.

أحسّ صادِق بعدم رغبتها في الكلام ، فقاد من جديد وتركها تضيع مُجدّدا بين أنوار الشوارِع وظلمة السماء ، حلّقَت من جديد إلى عالم لا يعرف ما فيه غيرها ، ولعلّه عالمٌ لا يوجد فيه غيرها ، لعلّها هناك ، هناك فقط تجد راحتها التي سعت إليها بالهرب من كل شيء ، من الجميع.. حتى من نفسها.

مضت الأيام كأنّها جولة سيارة واحدة ، صادِق يقود وهي تنتشي بهدوء اللّيل وظلمته ، تُحلّق بجناحيها لعالمها الوحيد تاركة خلفها

خصلات شعرها الذهبية تلعب بها الرياح كيفما تشاء ، وابتسامةُ تعب صنعتها الهموم لا الأفراح ، وعين لا تطيق منظر الجسد الذي تقبع أعلاه..

لعلّك تهربُ لعالمٍ تشعرُ بأنَّ الوقت لا يوجد فيه ، لعلّك تكون مع شخص لا تشعر بالوقت معه ، لعلّك تشعر بالوحدة لدرجة التفكير بأنّ الوقت أيضا قد رحل مع الرّاحلين وتركك... لكن الحقيقة المعروفة أنّ الوقت لا يتوقف لأحد ، ومهما كان الشخص الذي كنتَ معه ، أو مقدار الفراغ والوحدة التي تشعر بها ، أو حتى بُعد العالم الذي تهرب إليه ، فلا بدّ لكلّ شيء أن ينتهي ، ولابد لنا من الاستيقاظ يوما ما.. في وقت قريب جدًّا ، لا بُدّ من الوقت أن ينال منَّا.

****

- وعليكم السلام ، من معي ؟

- أنا "مرام" ، سكرتيرة والدك.

(من المتصل ؟)

- سكرتيرة أبي "مرام" ، هل كلّ شيء بخير ؟

- السيد عماد سقط مغشيا عليه في المكتب وقد نُقل إلى المستشفى للتّو ، قد طلب طبيبه حضورك.

- ماذا ؟! ما الذي حدث ؟!

(ماذا حدث ؟ ماذا هناك ؟)

- أبي في المستشفى.

- لا أدري ، ولكن طبيبه قال أنّه سيشرح كلّ شيء عند وصولك.

- كيف حاله ؟

- السيد عماد لم يستيقظ بعد.

- ما الذي قالته ؟ كيف حاله ؟

- لا أدري ، لكن علينا أن نذهب ، هل ستذهبين معي ؟

- أخاف إن رآني ، فتزداد حالته سوءًا.

- رُمية.. عليك أن تتوقفي عن الهرب ، أينما هربت ، ولكم من الوقت هربت ، أو ممّن ومِمّ هربت.. فستنتهين بالفرار نحو نفسك..

ستضطرين لمواجهتك ، فماذا تختارين ؟ مواجهة ما تخافينه الآن أو مواجهة نفسك بالندم والعيش معه بعد فوات الأوان ؟

صمتت رُمية وادارتْ ظهرها ، ليس لصادِق فقط ، بل لكلّ شيء. عرف صادِق الإجابة عن سؤاله ، فحمل مفاتيح سيارته من المنضدة وارتدى معطفه الأسود الملقى على الأريكة ، وخرج حتى دون نظرة ثانية للخلف.

بقيت رُمية تُراقب النافذة وتُفكر في كلّ شيء هربت منه على مدى السنين ، حتى أصبح رأسها مجرد مجمع للأفكار التي أغلقتْ عليْها بابَ التفكير فيها لخوفِها منْها ، داخل رأسها فوضى تفوق الفوضى التي تعبّر عنها أيامها ، رأت السماء تتحول من ظلام دامس إلى أزرق فاتح ، مع أنّها رأت الليل يموت كل صُبح إلا أن هذا الليل بموته ، أجاب عن سؤال كانت تبحث عن إجابته منذ أن فقدت أمها. "مِمَّ هي خائفة ؟"

أحيانا نبحث عن الإجابات في أبعد الأماكن حتى نؤمن أنّ الإجابة لسؤالنا لا توجد ، لكن الإجابة منذ البداية كانت أمام أعيننا نراها ولا نُبصرها

****

- هل أنت السيد صادِق ؟

- نعم. هل من مشكلة ؟

- لديّ طلبٌ من مريضة سابقة عندنا بأن أعطيك هاتين الرسالتين اللّيلة بالذات.

- ممَّن ؟

- من السيدة رُمية

- ماذا ؟! أين هي ؟!

- طلبتْ مني ألّا أخبرك ، وستفهم كلّ شيء حين تقرأ الرسالة الخاصة بك

- إلى أين تأخذون أبي ؟!

- إلى الجراحة.

- ما الّذي يحصل ؟!

****

" أخي صادِق، كما أعلم أنّك تُحب سماع هاتين الكلمتين مني، أعلم أنّك تعرف بشدّة كم أكره المواجهة وكلّ تلك الأمور العاطفية، لذا هذه المرة قرّرت الهرب للأبد، لكن في سبيل تصحيح كلّ شيء إن شاء الله، قد يبدو قراري غبيًّا كالعادة، لكن ثق بي، هذا أذكى قرار غبي قمت به في حياتي.

أرجو بعد أن استحققتَ مكانتك في قلبي وقلب أبي، أن تأخذ مجهودا صغيرا لتقرأ رسالتي وتحقّق رغبتي المدفونة بين هذه الأسطر، واعتبرها وصيّتي.

عندما تركتني في تلك الغرفة قبل أسبوعين وراقبتك من النافذة تبتعد بسيارتك بعيدا، اتجهت لأراقب السماء المظلمة كروحي حتى حلّ الصباح، وكلّ ما فكرت فيه هو نهاية اللّيلة، طيلة حياتي ومنذ موت أمي وأنا لا أرى للأمور سوى نهاياتها، أرى نهاية اللّيل وليس بداية النهار، أرى نهاية النهار ولا أرى بداية اللّيل. أرى نهاية الحياة ولا أرى جمال عيشها بمشاركتها مع من يحلّ لي حبهم دون حدود، أظنّني ضعيفة بعد كلّ شيء، لكنني اخترت

التظاهر بالقوة بدل الضعف حتى أمام أقرب الأشخاص لي، لأنّني دائما ما أُهزم بالسؤال: ما نفع القرب إن كانوا سيرحلون على أيّة حال؟ !!

كلّنا نحتاج لأشخاص بقربنا، ولهذا أنعم الله علينا بقربه، ثم بقرب الأهل والأحباب، ولسنا كالقطط تغادرهم أمهاتهم بعد ثلاثة أشهر أو ما شابه، لأنّنا أحيانا نحتاج أن ننفس عن كلّ ما يجتاحنا ونعترف بضعفنا أمام أشخاص سيحبوننا رغم ذلك على كل حال. كم أنّ الله رحيم!

بعد أن غادر الليل أُطلق سراح النهار، غادرت الشياطين نفسي وأطلق سراح نور الإيمان الذي سجنته أنا برغبتي، وصلّيت من جديد لأول مرّة منذ سبعة أعوام طوال لم يكن فيها أيّة بركة في وقتي، ولأنّك الأقرب لي الآن، يسرني أن أخبرك كم بكيت، وكم هي الراحة التي احسست بعد أن بكيت، وكم من الراحة أحسّ بها وأنا أخبرك هذا، لم أهتم بحجم ضعفي، لأنّ القوي كان معي.

لقد تبت والحمد لله، ارتديت ليس فقط الحجاب، بل النقاب نفسه، وكم احسست بالراحة فيه، بالغموض والقوة، بالثقة والاختلاف، لعلّي متأخرة قليلا باعتبار أنّها آخر أيامي، لكنه الله من أتعامل معه وليس نفسي، لم أتب لأنّها آخر أيامي، تبت لأنّني لأول مرة منذ زمن بعيد أعيش أيامي حقا، أريد أن أشعر بالراحة، ولا راحة في البعد عن الله، كما أنّني أردت أن أقدّم لحياتي فهذه الدنيا ليس فيها حياة.

لعلّك الآن محتار من كثرة كلامي، وخائف لأنّك تشك في موتي، هذه أنا أفتح صدري لك، وأنا أخبرك أنّني أحتضر، لقد شُخِّصت بالسرطان منذ مدة، وليس هناك شيء بإمكان الأطباء فعله، لا بأس، أنا لا أريد هذه الدنيا، لا أريد ملئ الأيام فيها ولو عرضوها عليّ، لا أريد عيشها بعد الآن، إنّني أمقت الدنيا، وأريد الموت حقا، ليس رغبة فيه، بل رغبة في لقاء ربي، قيام اللّيل كل ليلة لمدّة أسبوعين جعلني أشتاق.

صادق، ابني الذي اسميته أحمد مثل اسم والدك الذي مات على الحق، دعوت الله أن يجعل أيامه كلّها عيشًا في سبيل الحق، وأن يجعلها كلّها خوفا منه فقط، أريد منك أن تضعه في دار أيتام بعيدة كلّ البعد عن ضوضاء هذه المدينة الكبيرة، وأن ترعاه وتهتم به دون أن تُخبره الحقيقة، أرجو أن تحقّق رغبتي هذه مهما كان ذلك صعبا عليك، لا أريد لابني أن يكبر يتيما بأم زانية، الناس لا ترحم، وأخاف أن يكون بضعفي ولا يبصر أنّ الله أرحم،، تأكد أن يكون تعليمه منزليًّا بالكتب فقط، وليس حكوميًّا كالتعلم الذي لاقيناه، اختر له عائلته واختر له ما يقرأ، في النّهاية،" ليس المهم كم قرأت، بل ماذا قرأت"

لا تخبر أبي عنه، فلا أريد أن تكون ذكراه الأخيرة عن ابنته كزانية تطارده كلّما قابل عينا طفل بريء سيفارقه هو الآخر من جديد.

هذه هي الحياة، كلّنا خيبةُ أملٍ لأشخاص، ولكلّ منا خيبةُ أمل في شخص، ولنا نصيب من خيبتنا بأنفسنا وتلك هي الأصعب.

صادق، سأتبرّع بقلبي لأبي، هذا أقلّ ما يمكنني فعله لأجله بعد أن كنت أنا سبب حزن قلبه، وكلّ ما أطلبه منك في هذا الخصوص، هو أن تسلّمه الرسالة التي تخصّه عندما يحين الوقت لذلك.

أخي الأصغر صادق، لا أدري ما يؤلمني أكثر، عدم قولي هذا لك من قبل، أو قولي لك إيّاه الآن.. لكنني أحبك، أحببتك منذ اللحظة التي اصلحت فيها دميتي وأعدت خياطتها بالكامل رغم أنّك كنت تكرهها، أريد منك أن تدعو لي، ولك، ولوالديّ ولوالديك، فلعلّي لم أحظ بفرصة العيش معكم في هذه الدنيا، لكنني بالتأكيد أريد فرصتي في أن أحيا معكم في الجنة، ابتسم كلّ يوم وإن كانت الدموع على خدك منفذا لألمك، توقف عن محاولة إمساك اللّحظات وابدأ بعيشها، امسح صورتي من على هاتفك، وتذكرني بدلا عنها كلّما سجدت لله، وكلّما طالت يديك للسماء.

بالمناسبة، قُل للشرطة أنّ جثة "علي" مدفونة في غابة مدينة "التوم" في الجهة الغربية، هذا اعترافي بقتله كي لا يتّهموا بريئا آخر، تولّ الأمر أخي

ولا تسأل، فلقد كان لا بدّ لي من فعل ذلك، لقد حاول إيذائي ليُسقط الجنين من بطني، فهو والده، أنا لست فخورة بذلك.

هذا يجعلني قوية، أليس كذلك؟ غريب كيف يتأرجح الإنسان بين المفهوم وضدّه، إمّا أنّنا نعيش في تضادّ مع أنفسنا، أو أنّنا دوما في صراع معها، أو ببساطة.. كلّنا لدينا لحظاتنا، سأتركك لتفكر بالأمر.

راقب أبي.. أبانا من أجلي.

ولا تقرأ رسالته كما فعلت بمذكراتي، لكن مذكراتي ملك لك. أفارقك الآن، لكن أسأل الله أن ألقاك برحمته"

طوى صادق الرسالة وابتسم رغم الدموع ، اخرج هاتفه وألقى نظرة أخيرة لصورتها وهي تُحلّق بروحها ، ثم مسحها للأبد.

****

"أبي.. ألقي عليك السلام وأنا مدركة أنّني سبب فراقه لك، أنا ودون أيّة مقدّمات، أطلب منك العفو والرضا، ودون أيّة مبالغات، أدين لك بكلّ شيء، حتى تلك الثواني التي شكلت لحظاتنا الصغيرة مثل التي كنت ترفعني فيها لأتخطى الوحل، تعني لي الآن أكثر مِمّا تعنيه لي حياتي بأكملها.

أبي، لا تلم نفسك، فأنت بلا شكّ أفضل أب، والدليل هو أنّك ستشعر بالذنب على أيّة حال لأنّه لم يكن بمقدورك فعل أيّ شيء لإنقاذي.

أنا لم أهرب منك يوما، ولا من حبك لي، بل هربت من حبي لك، كان مقدار حبي لك كبيرا لدرجة أنّني خفت عدم تحمل ألم رحيلك، قرّرت التسابق مع الوقت ورحلت أنا أولا، أحببتكما أنت وأمي لدرجة أنّكما كنتما عالمي الوحيد، ثم ماتت أمي وتركت فراغًا ملأته أنت بمزيد من الحب والعناية، لكن السؤال الذي بقي يطرح نفسه هو "إلى متى؟"، في النّهاية ستموت أنت أيضا وتتركني لفراغ لا يملأه سوى ألم الذكريات، ظننت أنّني إن ابتعدت عنك أو تظاهرت بكرهك، فسأكرهك حقًّا في النهاية ولا أتأذّ

برحيلك عنّي، لهذا السبب بالتحديد خرجت مع شبّان أكره كل شيء فيهم، لأنّني لم أكن أريد أن أكون وحيدة، ولم أرد أن أتألم، فخرجت مع شبان لن يؤلمني رحيلهم وإن ماتوا أمام عيني، كأنّهم لم يكونوا أبدا، لكن الحياة تتعقد على كلّ حال مهما حاولنا جعلها بسيطة، ولا ندري من منا سيرحل أولا من هذه الدار، وشاء الله أن أرحل أنا أولا، وأندم جدا لأنّني لم أستمتع بكلّ ثانية من وقتي معك أنت وصادق، يا لغبائي، نسيت أنّ الدنيا دار فراق وليست للوداع، فالوداع يكون إن تفرّقنا بين الجنة والنار.

لعلّك الآن تفهم سبب رحيلي ومقدار حبي لك، مع أنّني أحتضر من السرطان الذي ابتلاني به الله أو جعله عقوبة تُكَفّر بها أفعالي، إلّا أنّني أحب أن أفكر أنّني اعطيتك قلبي وحياتي، لتحيى أنت بدلا عني، لعلّي بشكل ما أردّ لك ولو جزءً صغيرا من المعروف، كلّ ما أردته أنت بعد فراق أمي، هو أن تكون معي كي لا تحسّ بفراغها، وأنا كنت أنانيّة لدرجة أنّني فكرت في إنقاذ نفسي من ألم لم يكُن هناك داع له، وتركتك تواجه ألم

رحيل أمي، ثم رحيلي أنا ، والآن، أنا معك، بقلبي.. حرفيًّا، إلى أن نلتقي من جديد.

أعلم أنّك تبكي الآن بينما تقرأ هذه الكلمات، لكنني أتوسلك أن تتوقف، لم يكن بمقدورك فعل شيء، وأنت لا تودّعني، بل تفارقني فقط، أريد منك أن تعمل لآخرتنا، كلّ يوم من حياتك كأنّه الأخير، وأريدك أن تسعد وتبتسم لأجلي، لأقابل الله بابتسامتك، لا أريد أن تضيع التجاعيد حول هالة عينيك هباءً، ابتسم أبي وعش أيامك مشتاقا للقائي لا حزينا لفراقي، وتذكرني دوما بتلك الفتاة التي تعانقك من الخلف وتصعد على ظهرك لتجعلك تأكل عندما لا يكون للأكل طعم في فمك، حافظ على قلبي وأحسن الظن بالله، سنلتقي عنده، أعدك.

أفهمت الآن يا أبي؟ مهما حاولت نسيانك، وأينما هربت، فمصيرك معي هو الذكرى.

أحبك بابا

مسح السيد عماد دموعه..

- أفهمك يا ابنتي ، أحيانا نحب بعض الأشخاص أكثر مِمَّا ينبغي ، فنأبى أن نكمل المسير دونهم. أسامحك رُمية ، وأنا راضٍ عنك ، أحبك بُنيّتي..

غُرباء وصَلَهُم القدر

****

مُترنَّحا كشارب الخمر في وضح النهار ، في عينيه نظرةٌ تُعبّر عن ألف صرخة بعد هيجاء لحقتهُ بالدّمار ، شفه السّفلى ترتجف بشهقة تلوى الأخرى أرغمتها العَبَرُ وأمسكتها الشفة العليا بالتّمتمة ، ولكن وجههُ النحيف المكتئب لم يُعبر سوى عن النهاية ؛ نهاية الصمود.. نهاية المعركة ، وخسارته فيها.

بين الأزِقة يمشي بخطوات معوجة ، بأرجل مقوَّسة لم تَثبتْ له في المسار ، عيناه تقطران دموعًا ، لم يجد لها حلًّا سوى مسحها بكف يده المتيبّسة والمتجعّدة. صَمتُه يُغني عن ألف حديث ، بالرغم من أنَّ له وجهة محدّدة ، إلا أنَّ ترنُحه وطأطأة رأسه تجعل كلّ من يراه ببشَرته السوداء المتجعدة ، ووجهه الميت بعينيه المحصورتين بين عظام جمجمته ، وملابسه الرثّة الممزّقة الملطّخة بالرمل والإسمنت والغبار ، يظُنّ أنّه مجرّد سكير متشرد هائم على سطح الأرض.

الشيخ أحمد كان غير ذلك ، بل عكس ذلك ، الشيخ أحمد مجرّد عامل بناء بسيطٍ بأجر لا يُفطر صائما ولا يكفي عائلة ، غريبٌ كيف يراك الناس ولا يرون سوى ما يريدون رُؤيته. غريبٌ كيف يراك الناس سكّيرا ولا يرون أنّك تترنّح فقط من شدّة التعب ، منذ أن صلَّى الفجر وهو يمشي بحذائه الضيق المتآكل مسافة سبعة أميال من قريته إلى المدينة ، ولم يتوقف لحظة لا من المشي ولا من البُكاء ولا من الدّعاء. كان أحمد في طريقه لمنزل أخيه في المدينة ، شقيقه الذي يملك متجرًا كبيرا جعل منه رجلا ذو صيت ومال ومكانة ، وجعل منه حيوانا مُتوحشا مغرورا ودون رحمة.

يبكي الشيخ "أحمد" ويُعيد في رأسه ألف ذكرى ، ولا واحدة منها تُسعد ، لم يرفع رأسه ولو للحظة ، لا لبوق سيارة ، ولا لحاجز أمامه أو إنسان ، فقط كي لا يراه أيّ مارٍّ يبكي.. فقط كي يحتفظ بماء وجهه في وقت كان متأكدا من أنّه قد خسر فيه كلّ شيء آخر ، يُفكّر ويُعيد.. في زوجته الحامل المريضة التي اخبرها الأطباء عن ضرورة إجراء

عملية عاجلة مكلّفة لا يُغطِّيها التأمين ، وإلا ستخسر ابنتها التي في رحِمها ، ورُبما الشيخ "أحمد" سيخسر كلاهما ، لم يكن للشيخ وزوجته العجوز سوى شاب في العشرينات من عمره ، ضائع في حياته ، لا يُبالي إلّا بنفسه وعيش حياته في الفراغ ، فاشلٌ لا يُريد سوى المال ، ولا يفكر سوى في الهجرة ، ولا يبالي سوى ببطنه وفرجه ومخدّراته. لا يفعل شيئًا سوى لوم والده الشيخ على الفقر الذي بُعث للحياة فيه ، ترك الدراسة بعد أنْ رسب لأعوام كثيرة ، لأنّ كلّ همّه كان في كم من الوقت ينام ، ومظهره كيف كانْ ، وكمْ من فتاة تحلم به في المنام ، ولكن دومًا هناك مشكلة المال ، فذهب إلى الشوارع مع أمثاله ظنّا أنّ المال سهل المكسب ، فواجه حائط الواقع أنّ الرزق لن يُسهّل الله فيه إن كان بُغية الحرام ، فاتّجه للسرقة والنّهب والعنف ، أرهق والداه العجوزان على أبواب المحاكم وقضبان السجون ، ولم يرثَ لحالهما يوما مع أنّهُما لم يمنحاه سوى الحب والحنان والدّلال ، لهذا كان حلم الشيخ وزوجته ابنةٌ بارّة بوالديها ،

تُسعدهما في أواخر عمرهما وتُعيد لهما ضحكة الشباب ولو لمرة قبل الموت ، ولكِبرهما لم يتوقعا يوما أنّ الحلم قد أصبح دُعاء ، والدُّعاء استجيب من الله.

كان بيته رثّا مليئا بالنّدى ، ظلّ الموت يقابلك بالنّظرات أينما سقطت العين ، فارغٌ من كلّ لوحة.. من أيّ أثاث.. كلّ ما يملأه هو الصّدى ، باع الشيخ أحمد كلَّ ما في منزله ليُبقي زوجته تحت الرّعاية في المستشفى ، مع أنّ كتفاه كانتا محمّلتان بالدّيون إلّا أنّه لم يجد حلّا سوى الاستدانة من الحكومة حتى مع عِلمه أنّه سيُعيد المبلغ أضعافا مضاعفة ، لم يكن يبالي بموته على يد من استدان منهم ، أو خسارة منزله القديم على يد الحكومة. كلّ ما كان صوب عينيه هو زوجته وابنته.

البارحة ، بعد أن استدان من الحكومة مبلغا ضخما يكفي لسداد عملية زوجته العجوز ، نام ولأول مرة منذ أشهر كما ينام الطفل الرضيع.. كمن لا همّ له ، تغمره السعادة والأمل ، نام على ابتسامة

واستيقظ على واحدة أكبر منها ، فتح عينيه وقت الفجر واتّجه نحو المسجد للصلاة تاركا خلفه ابنه النائم كالميت يسيل لعابه بعد أن عاد كعادته متأخرًا من جلسات خمره ، لمّا عاد من الصلاة ، لم يجد لا ابنه ولا المال الذي استدانه ، وعرف على الفور أنّ كلاهما لن يعودا أبدًا.

منذ ذلك الوقت وهو يمشي باكيا من الهمّ والذلّ والتعب لمتجر شقيقه لطلب الإعانة ، أخوه الذي لطالما أذلّه أمام الناس وأمام العائلة ، أخوه الذي استغلّ إعاقة أحمد الأبكم واستغلّ جهله وأُمّيته ، ليستولي على إرث العائلة بعد موت والدايهما ، أخوه الذي وعد أحمد نفسه بشرفه وكرامته ألّا يعود إليه أبدًا.

وقف الشيخ أحمد مدّة رُبع ساعة أمام المتجر يمسح دموعه ويُعيد ، ما إن يمسح واحدة حتى تنزل أخرى غصبًا من جديد ، أخوه الذي لم يدعه لحفلة زفافه قبل شهرين ، ها هو الآن يأتيه دون دعوة ، ما إن تمالك نفسه حتى أخذ أول خُطوة على عتبة المدخل ، رأى أخاه

الأصغر يُقابل الزبائن بابتسامة وبشاشة وفرح ، ولكن ما إن التفت الأخ الأصغر لأخيه حتى تحولّت الابتسامة لنظرة غضب واشمئزاز ، والبشاشة لتكشيرة كلب مُشرّد مُصاب بالسعار. لا رحمة في وجهه ولا بريق أمل في نظرة عينيه ، ما إن رأى الشيخ أحمد التحول على وجه شقيقه ، حتى انفجرت عيناه بالعبرات من جديد فاقدًا الأمل الوحيد المُتبقي له لإنقاذ ما تبقى له من عائلته.

****

كان الشاب أحمد خارجا من العمارة التي يقطن فيها كعادته كلّ صباح ليشتري الحليب والخبز ، أحمد شاب حسنُ الأخلاق ، ذو صوت هادئ ومريح ، وجهه بريء لا يفقد الابتسامة أبدا ، كانت نصف ابتسامته تكفي لتنسيَ من قابلهُ بها عالمه ، خلف تلك البراءة عاصفة لا تسكت عن الحق أبدا ، ونضج فكري عميق ، ومزاح يعيدُ الهواء لفاقده. كلٌّ من كبار السن والآباء والأمهات والبنات وحتى الأطفال الصغار يحبونه ، ولكن كلٌّ من الشرطة والشباب يكرهونه ، الشرطة

تكرهه لأنّه يسبّب لهم المشاكل عندما لا يأبى الصمت أمام محاولاتهم العديدة لقطع أرزاق الرجال بقوانينهم التي لا تعذر من لا لقمة له ، الشباب يكرهونه ببساطة لأنّ آبائهم وأمهاتهم يطلبون منهم الاقتداء به ، وطبعا السبب الرئيسي هو أنّ الفتيات معجبات به ، مع أنّه لم يبد اهتماما بإحداهن أبدًا. أحمد شابٌ خجول متواضع محترم ذو قامة معتبرة ، نحيل قليلا ، ذو وسامة عادية جمّلتها الأخلاقُ والهدوء والغموض.

ذلك اليوم ، لم يجد أحمد الحليب في المتجر الذي اعتاد اقتناء حاجياته منه ، فاتجه على هوى أقدامه تقودانه حتى لمح متجرا على مرأىً من عينيه ، دخل الشاب إلى المتجر بتحية الإسلام دون أن يرى من حوله ، اتجه مباشرة للثلاجة والتقط الحليب منها ، ثم الخبز من السلة وهمَّ باتجاه البائع ليدفع الحساب ، فرأى أمامه شيخا عجوزا أبكما جبهته الصلعاء سوداء من لسعات الشمس تنصب عرقا ، شفتاه ترتجفان وعينيه لا بياض فيهما حمراوتين تبكيان ، يُحاول أن يتكلم

بالإشارة مع صاحب المتجر الذي لم يكن يُلق له بالا ، بل كان يومئ رأسه ببرودة وفي عينيه نظرة إنسان بارد متعال ، وأخذ يضع مقتنيات الشاب في كيس دون اهتمام أو نظرة واحدة للشيخ ولا لإشاراته.

بكى الشيخ دموعه بحرقة ، ثم بكى دمًا. يداه ترتجفان وقلبه مختنق وضيق ، تَرَجّى أخاه فلم يُلق له بالا ، قَبَّل يديْه فمسحهما على قميصه بنظرة اشمئزاز على وجهه ، لم يجد لذُلّه ولا لهمِّه وزْنًا ، وازداد ثِقلهما حتى سقط على ركبتيْهِ يُقبّل رجليّ أخاه الأصغر ، قبَّلهُما وتمسّك بهما حتى تمنّى لو أنّ أمهُ لم تلده فقط كي لا يعيش هذه اللحظة ، تمنّى لو الأرض تنفتح وتبتلعه هناك ، قبّلّهما حتى أحسّ بطعم الذُل على لسانه.. أصبح للذلّ مذاق ، قبّلّهما حتى آخر قطرة من كبريائه ، وأخاه الأصغر واقفا متلبدا ، ارتسمت على وجهه ابتسامة لم تظهر إلا شرًّا كان يخفيه ، وحين فتح فمه لم يقل سوى:

-أفكر في توسيع أعمالي وفتح متجر آخر في قريتكم ، لذا ، إن أردت المبلغ لعملية زوجتك فما عليك سوى إعطائي عقد منزلك.. سأهدمه وأبني مكانه متجرا أفضل من هذا...

تجمّد الشيخ أحمد في مكانه ورفع رأسه مُندهشا لما يفعله شقيقه الأصغر به ، فتلك الحيطان المُتشقّقة هي كل ما بقي له ليستر عورته ، ازدادت ابتسامة الأخ عُرضًا وخُبثا وأكمل قوله بنبرة من السخرية والاستهتار:

- لا تعتبر الأمر كابتزاز ولكن اعتبره كأنّك بعت المنزل لي بالمبلغ الكافي لعملية زوجتك العجوز.. قيمة عمليتها أكبر بكثير من قيمة الخردة التي تدعوها منزلا..

للحظة عمَّ السكون المكان ، نزع الشيخ يديه من قدميّ أخيه ببطء ووضعهما على فخذيه للحظة ، ثُم نهض من على الأرض وعينيه ممتلئتين بالدموع ، نظر إلى أخيه ، في عينيه مباشرة لثواني عدّة ثُم مشى مترنّحا يجُرّ جسده نحو المخرج وفي وجهه علامات جثةٍ ميتةٍ

وليس بإنسان حيّ ، خرج يُعيد الذكريات ، كيف أنّه بعد موت والده ترك الدراسة ليعمل ويُعيل أمّه ، كيف ترك تفَوقه في الدراسة كي لا يضطر شقيقه الأصغر لتركها ، كيف كان كلّ ليلة يخفي آلام ظهره وكل علَّة فيه من العمل كي لا تبكي أمّه العجوز على عجْزها ولا تُجبر أخاه على مساعدته. كيف ماتت أمّه فجأة ولكن رغم هذا استمرّ في العمل لأجل إعالة أخيه وإبقائه على مقاعد الدراسة ، وكيف هذا الأخير أرسل مجموعة من أصدقائه الشُبان في الجامعة ليقطعوا له الطريق ذات ليلة بينما كان عائدا من العمل ، ابرحوه ضربا ثم قطعوا له لسانه كي يستغلّ الإعاقة وأموال العلاج والإعانة ، ثم استغل جهله لينهبَه حصّته من المنزل والميراث ، والآن.. يريد أن ينهبَه ما بناه بيديه من الطين والحجر والعرق.

وهو يمشي مترنحا نحو المخرج ، عَلِم في أعماق نفسه أنّه سيرضخ لمطالب أخيه ، وسيعطيه كلّ شيء لأجل زوجته وابنته التي لم تولد بعد ، زوجته التي وقفت معه ضدّ عائلتها.. التي تقبّلته كزوج لآخر

العمر رغم ظروفه.. رغم جمالها واستحقاقها للأفضل.. زوجته التي كانت تتظاهر بالشبع في منزل أهلها ليظنّوا أنّه يُطعمها كلّ ما هو لذيذ ، زوجته التي لم ينظر في حياته لغيرها ، ويراها رغم كبر سنها وكثرة تجاعيدها شابة جميلة كأول مرة التقيا فيها ، ولكن شيئًا ما أبقى قدميه تجرّانه نحو الخارج ، لم يستطع إيقافهما ولم يكن يحاول ، كأنّه يطلب دون وعيه بعض الهواء ليتنفس ، يُحس بالذنب كلّه ذنبه لأنّه لم يكن رجلا على قدر المسؤولية بما يكفي ليُوفر لعائلته العيش الكريم ، يُحسّ بالذنب لأنّه يطلب الموت ليرتاح تاركا كلّ همّ وراءه في الدنيا.. يترك زوجته للوقت والقدر.

مع كلّ خطوة يقترب بها للباب ، تحرق فيها الشمس دموعَه المالحة في عينيه ووجهه أكثر ، ويُحسّ بالضيق أكثر ، وانقطاع النفس عليه أكثر.. كأنّه سيغمى عليه.

****

كان "أحمد" كهلا في الأربعينيات من عمره ، سمين من وجهه لأخمص قدميه ، قبيح الوجه ولم يقبِّحه إلا كثرة عبوسه وغضبه ، يعمل كمُدير مستشفى دون رحمة.. دون قلب.. دون ضمير ، كلّ ما يهم بالنسبة له هو المحافظة على أموال الميزانية لا على صحة المرضى ، فقط ليختلس منها ما يستطيع ، هو من الأغنياء المعروفين في المدينة ، له زوجة تعمل كطبيبة خاصة للنساء في مثل عمره وشهرته وقُبح قلبه ، وله ابنة وحيدة في العشرينات من العمر مدلّلة تمّت تربيتها على المال لا على الأخلاق.. على المظهر لا على الجوهر.. على السعي للحياة لا للجنة ، كلّ همِّ الكهل وزوجته هو المال ، وكلّ شيء بالنسبة لهما يصلح حاله بالمال حتى ابنتهما ، فكبرت مدلّلة دون ضمير ظاهر لا في تصرفاتها ولا في ملابسها ولا في كلامها ، تدرس في الجامعة ولم تُعِد ولم ترسب ولو لمرة في حياتها بسبب رشوة والدها للمعلّمين والمدراء ، ورغم كلّ رغباتها المثيرة للاشمئزاز ،

إلّا أن حبّها للرجال الأكبر سنا منها وأقربهم إلى سنّ أبيها هو ما يثير القرف الأكثر.

عشيقها كان في الثاني والأربعين من العمر، تاجر غنيٌّ يملك متجرا مشهورا في المدينة، متزوج حديثا بفتاة في مثل سنها، ولكن هذا لم يمنعه من الكذب عليها ويعدها بأن يطلّق زوجته لأجلها، ولم يمنعها هي من الاستمرار في تمثيليّة العشق والحب الممنوع، فتلك التمثيليّة تمُدّها بشعور المغامرة والحرية والخطر، تُحاول ملء الحفر الفارغة من الدّين والعواطف والأهداف في قلبها التي حاول والداها ملأها بالمال.

كان عشيقها الكهل يتظاهر بالذهاب إلى الصلاة كعذر لإغلاق متجره، يركُن سيارته قبالة المسجد ثم يركب في سيارتها ويتواريان عن الأنظار لحين انتهاء موعد الصلاة، أكبر الحيل وأكثرها خبثا هي عندما يتوجه إلى مدن أخرى لشراء السلع، فتذهب معه في رحلة

طويلة قد تدوم يوما أو أكثر.. يلهوان فيها ويتمتعان، هو ينصب الشرك وهي تعدّ الأيام.

****

كانت زوجة جميلة متخلقة ولا تجذبها سوى الأخلاق، تزوجت من رجل أكبر سنا منها غصبًا لأنّ أباها رأى فيه مظاهر الرفاهية والمال الكثير، كانت خير زوجة تُقدّم لرجل، فجمالها باهر يمنع العين من أن ترى في أيّ اتجاه آخر غير اتجاه وجهها، وحياءها وأخلاقها ورِقّة صوتها الملائكي، كانت لتُهدئ الليث في قمة غضبه.

في شهرها الأول بمنزل زوجها، منعها من الخروج غيرةً وعشقًا، ثمّ مع موت الشهر، ماتت معه غيرة زوجها، فأصبح بليدا قليلا ما يزور المنزل ولا يعود إلّا ليلا للنوم، من شدّة وِحْدتها تجرّأت وسألته الإذن بالذهاب عند جارتهم أحيانا للترويح عن نفسها بما أنّ منزل والديها بعيد، وما أثار دهشتها أنّه وافق على ذلك دون تفكير أو حتى نظرة إليها.. دون غيرة.. دون خوف، كانت دوما تتساءل أين اختفت

غيرته ؟ ، فهي الشيء الوحيد الذي أحبته فيه ، وإن اختفت الغيرة فلن يبقى أمامها سوى رجل خارجة بطنه ، قليلة نظافته ، منعدمة أخلاقه ، ولا ودَّ بينه وبينها.

كانت ما إن تخرج من منزلها حتى يتهجّم عليها أبناء الحي الجالسين في الزوايا بالنظرات وعبارات الغزل حتى وهي مستورة الجسد ، تذهب مباشرة إلى منزل جارتها لقضاء الوقت دون حتى أن تنزع حجابها ، ثم تعود وعينيها على الأرض مباشرة إلى منزلها ، وما جعل الأمر صعوبةً هو أنّ الشارع المقابل لمنزلها كلّه عمارات مليئة بالشبان العاطلين عن العمل ، والمنقطعين عن الدراسة ؛ أصحاب الفسولة الذين كلّ همّهم الأكل والنوم والفرج والهرج.

في بداية الأمر كانت زياراتها تتمحور في الحديث عن أحوال المنزل ، مثل الطبخ ، والبرامج التلفزيونية ، الأواني ، الألبسة المنزلية ، وغيره من الكلام الذي يعتبره الرجال مملّا.

ذات يوم ، بينما كانت خارجة من منزل الجارة إلى منزلها ، تنهدت وقالت:

- كرهت المجيء إلى هنا بسبب كلّ هؤلاء الشبان والرجال خارجا ، أليس لديهم شيء أفضل يقومون به في حياتهم من الجلوس هناك ورمي المارة بكل أنواع الكلام ؟! الغريب بالشتم والنساء بالغزل.. يا فرحة الصحابة بأحفادهم!

فاقترحت عليها الجارة:

- من الآن فصاعدا ، سآتي أنا إليك ، أنا أكبر سنّا وقد نزع منّي ابنائي كلّ ذرة جمال حظيت بها قديما.. أولئك الملاعين!

- هل سيسمح لك زوجك ؟

- سيكون مسرورا بذلك ، سيتسنّى له مشاهدة التلفاز دون صوتي المزعج.

- إذا أراك غدا في الوقت نفسه ؟

- طبعا ، حان دوري كي أرى منزلك.

في اليوم التالي كان كلّ حديثهما عن الشبّان الفاسدين في الحي ، وعن القلّة الصالحين الذين تتسم فيهم معنى الرجولة والأخلاق كأخلاق الأنبياء والصحابة ومن تبعهم بإحسان ، ذَكَرت الجارة للشابة عن عملها الخيري بنيّة الصدقة تجاه إحدى عائلات الحي التي تسكن في العمارة المقابلة ، حيث أنّها عائلة يتيمة الأم ، ثلاثة أولاد صغارٍ وشاب عشريني ، أبوهم يعمل جرّاحا في المستشفى ، والجارة تأخذ لهم بين الحين والآخر وجبات الغداء والعشاء نظرا لاشتغال الأب الدائم في العمل ولا مربية لهم ، انجذبت الشابة للفكرة لحُسن أخلاقها وقلبها الكبير المُحب للخير. استأذنت من الجارة أن تُعينها في تحضير الأكل لهم بما أنّ لديها وقت فراغ كبير لتملأه في المنزل ، فوافقت الجارة بكلّ سرور.

- يمكنك فعل ذلك كلّ الوقت ، فأنا لا أفعل ذلك إلا أحيانا لشدّة انشغالي بأبنائي وزوجي ، عندما أريد أن أطبخ لهم ، سأتصل بك قبلا كي لا تضطري للطبخ ، موافقة ؟

- طبعا ، سأطبخ لهم الغداء غدا بإذن الله.

- اضيفي التوابل الحارة ، فالشاب يحب أكله حارا.

- لا مشكلة ، أحب أكلي حارا أيضا ، وهل الشاب مُحترم ؟

- كلّ الاحترام ، هو مصدر فخرنا الوحيد في هذا الحي ، حتى أنّه لا يُخالط الشبان هنا ، ستكتشفين بنفسك.

منذ ذلك الحين وهي تطبخ لهم وتأخذ الأكل بنفسها وسط كلّ المزعجين ونظراتهم ، ما إن تطرق الباب حتى يفتح الشاب وسط لعب وصراخ إخوته ، وبخجل تام من كليهما يأخذ الأكل من يديها ، يدعو لها بالبركة ثم يفترقان بابتسامات الخجل ، مرّت عليهم الحال هكذا فترة ، حتى تشجّعت مرّة واخبرته أنّها تكره الطريقة التي ينظر إليها الشبان بها ، والأصوات الغريبة التي يطلقونها ، طلبت منه رقم هاتفه كي تتصل به عندما ينضّج الأكل ، فيأتي ويأخذه بدلا منها. خجلا منها ، وافق على طلبها رغم أنّه هو أيضا يكره الطريقة التي ينظر الشبان بها إليه وكلماتهم المرميّة إليه.

أصبحت تضعُ حجابها بعد أن تحضّر الأكل في الآنية ثم تتصل به ، لا يُجيب ، ولكن يكتفي بغلق الاتصال ثم يتّجه إليها ، وما إن يطرق الباب حتى تفتح هي وتعطيه الأكل مع تحية السلام والسؤال عن الأحوال والطمأنة على الأطفال ، ثم يفترقان ولا تفترق عنهما ابتسامات الخجل ، مع الوقت ، قُتل جزء صغير من الخجل فيهما بعد أن أصبح الشيطان ثالثهما ، وأصبحت تتصل به قبل وضع الأكل على الآنية ، وبدل الانتظار أمام الباب ، أصبحت تدعوه للدخول فيتجاذبان أطراف الحديث حتى تُجهّز كل شيء بمساعدته ، تعجّب هو لمُستوى عِلمها المندمج مع ذلك الوجه الجميل ، وتعجّبت هي لاختلافه وهدوءه الملفت للانتباه.

اتّصلت ذات مرة صباحا على غير الموعد المعتاد ، فأجاب نظرا لأنّ اتصالها جاء مبكرا على نحو مفاجئ ، اخبرته أنّها مريضة ولا تستطيع الطبخ لهم اليوم ، فأجابها بأن لا تحمل أيّ هم ، وما إن حان موعد الغداء حتى تلقّت رسالة نصية منه على الهاتف تقول "استعدي

وافتحي الباب" وما أن فعلت ووضعت الحجاب وفتحت الباب حتى وجدته هناك يحمِل صينية الأكل ، فسألته متعجبة:

- ما هذا ؟!

- طعام!

-أستطيع أن أرى أنّه طعام أيها السخيف ، ولكن لماذا ؟!

- رَعَيْتِنا والآن حان دورنا

-من تولى الطبخ ؟!!

- أنا

- أ تعرف الطبخ ؟!

- نعم ، ماذا تظنّين كنّا نأكل قبل أن تأتي أنت ؟

- إذا كنت تعرف الطبخ ، فلماذا أنا أطبخ كلّ يوم لك ؟!

- لا أدري!!

- لماذا لم تخبرني ؟

- أنت لم تسألي ، وأنا كنت خجلا أن أرفض الأكل. ستتركينني معلّقا أمام الباب ؟! الآنية ليست خفيفة كما تبدو..

- آسفة ، ادخل.

- إذا ما هي المشكلة ؟

- لا مشكلة على الإطلاق.

- أقصد ما هي علّتك ؟

- آه ، لا أدري ، رأسي يُؤلمني كثيرا كأنّ دماغي يتحرك وسط جُمجمتي ، وحلقي يؤلمني ، حتى شرب الماء يؤلمني ، ولم استطع النوم البارحة.

- ألم يأخذك زوجك للطبيب ؟

- لا ، لقد غادر صباحا باكرا كعادته ، هو لم يلاحظ أنّني مريضة أصلا

- حسنا.. أتريدينني أن آخذك للطبيب ؟

- لا ، يا إلهي لو يكتشف أنّني ذهبت دون علمه سيقتلني

- كذلك لو يكتشف أنّني هنا..

- معك كلّ الحق.. أنا لست معتادة على هذا أبدا!

- ولا أنا.. حسنا ، اذهبي إلى الفراش وكلي الغداء ، إنه حارّ جدًّا ، سيساعد على فتح مسام أنفك ، ثم بعد الأكل ، تناولي الأسبرين لآلام رأسك ، احضري بعض الماء الساخن الممزوج بالملح ، وتابعي غرغرته في حلقك ، أعيدي الكرّة عدّة مرات ، ثم نامي ، في اللّيل اعيدي الكرّة واشربي الكثير من الماء على الرغم من الألم ، فالماء يساعد على النوم أسرع.

- (متعجبة) أهذا ينبع من كونك ابن جراح ؟! أم من دراستك ؟!

- لا هذا ولا ذاك ، لديّ ثلاثة إخوة صغار ، دائما ما يكون بهم علّة للَعبهم الدّائم في كلّ الظروف والفصول ، وأبي دائما غائب ، لذا كان عليّ قراءة كتبه الطبيّة للعناية بهم ، ومع الوقت تعلّمت القليل ، وأنا لم أدرس في المدرسة يوما.

- كيف يُعقل هذا ؟! أنت ابن جراح ولم تدرس في المدرسة يوما ؟!

- نعم

- ولكن كيف ؟!

- أنا مُتبنّى

****

ما إن خرج الشيخ منّ المتجر مهزوما حتى تهاوت يدٌ على كتفه.. كان الشاب أحمد يُقابله بابتسامته التي تعيد الروح لفاقدها ، وسأله بلغة الإشارة:

.تبدو تعبا ، هل أنت بحاجة إلى مساعدة ؟

شاء الله أنّ الشاب يتكلّم لغة الإشارة ، فصديق صغره الوحيد في الميتم أبكم ، كان يحضر معه دروس لغة الإشارة ليؤنّس وحدته ومع الوقت اتقنها ، أومأ الشيخ رأسه بالإيجاب ، فأخذ الشاب بيده لمنزله ليرتاح ، حضّر له القهوة ، وجلس معه وابتسامته لم تفارقه ، مع أنّ الشيخ كان لا يرفع رأسه متعجّبًا من نفسه كيف قبل عرضه بالذهاب إلى منزله! لعلّ تعبه الشديد اجبره ، أو خجله الشديد ، أو أنّ الشاب فاجأه على حين غرّة بلغة الإشارة فقبل ، لم يكن الشاب يريد إحراج

الشيخ ، فكان يحدّثه عن مواضيع عامّة ببعض الفكاهة لينفتح له قلبه تدريجا ، ثم تعمّق قليلا وسأله عن المشكلة ، فلم يجد الشيخ مفرًّا منّ الإجابة ، أجاب بصدر مفتوح وعين لا تجف ، كأنّه يحاول أن يجد أذنًا تنصت وقلبا يهتم ، كلّما تعمّق زاد بكاءه ، لم يستطع أن يرفع يديه للإشارة ووضع يده على جبينه ليُخفي وجهه ، سارع الشاب لمعانقته بقوة واستساغ الشيخ عناق الشاب فبادله عناقا أكثر منه قوةً حتى هدأ وتوقفت دموعه ، أصرّ الشاب عليه أن يأخذ حمّاما ويغيّر ملابسه بملابس منزلية حتى يتسنى للشاب تنظيف ملابسه المتسخة ، بعد الحمام استلقى الشيخ على الفراش ينتظر لتجفّ ملابسه حتى غاص في نوم عميق من شدّة التعب.

استيقظ الشيخ صباح اليوم التالي بعينين منتفختين ، وجسد منهمك ، قابله الشاب بوجه بشوش وأخبر الشيخ مُمازحا بأنّها أول مرة يرى فيها شخصا ينام ليوم كامل ، والأكثر عجبا أن إخوتي المزعجين لم يوقظوك ، ابتسم الشيخ واعتذر للرحيل ، ولكن الشاب

منعه وأخبره أنّ الفطور سيجهز بعد قليل ، وطلب منه التريث ، فلم يجد الشيخ أمام حُسن ضيافته سوى القبول والشكر ، ولكنه لم يدرك أنّ للأمر بقية.

أثناء الفطور ، بقى الشيخ مطأطأ رأسه خجلا من حسن الضيافة التي لا يستطيع لها ردًّا ، فبادر الشاب بالحديث بدل الشيخ ، واخبره أنّه اتصل بأبيه ليلة البارحة كي يخبره عن مشكلته ، فتعجّب الشيخ وسأله لماذا فعل ذلك ؟ فأجاب الشاب بابتسامة:

"أبي رئيس الجرّاحين في المستشفى"

ارتعش الشيخ إلى أن كاد يسقط الفنجان من يديه وارتسمت على وجهه نظره دهشة متجمدة ، فأكمل الشاب:

"سنذهب لزيارته بعد الفطور ، وسنحاول حلّ مشكلة زوجتك ، بإذن الله ستكون بخير هي وابنتك"

لم يتمالك الشيخ نفسه ، فبدأت شفتاه بالارتجاف ، ودموعه بالسقوط ، وهبّ يُعانق الشاب بقوة كأنّه لم يعانق أمه يوم كانت

حية ، ثم استأذن للصلاة شكرا لله. اتصل الشاب بجارته واخبرها أنّه سيغيب عن المنزل ، وطلب منها أن تستقبل إخوته عندها بعد أن يخرجوا من المدرسة إلى حين يعود هو إلى المنزل ، وبالطبع وافقت.

كانت المسافة بعيدة من المنزل إلى المستشفى ، ومن فرحة الشيخ لم يستطع أن يُضيع الوقت مشيا فأوقف الشاب سيارة أجرة مبتسما سعيدا ، فالشيخ أمامه تحوّل لطفل في العاشرة من عمره على وشك تلقّي هدية ، فرحا لا يستطيع انتظار الحصول عليها ، لا يتوقف عن الحراك والالتفات برأسه في كل الجهات وسط السيارة ، صعد شاب وشيخ ، ونزل منها شابّان بنفس الاسم.

تقابل الابن مع أبيه بالسلام والمصارعة الوديّة وسط الضحكات ، ولم يسع للشيخ إلا أن يتذكر ابنه ، ومع أنّه ابن عاق ، إلّا أنّه يبقى فلذة كبده الوحيد ، والمشهد أمامه جعله يتساءل:

"أين هو ؟ هل هو بخير ؟ ما الذي فعلته خاطئا معه ؟ لماذا لا يشبه ولو قليلا هذا الفتى ؟ لماذا لا أستطيع الحصول على القليل من هذا مع ابني ؟ هل السبب هو إعاقتي ؟ سوء تربيتي ؟"

قاطع تفكيره مصافحة الجراح الأب له بابتسامة ترشده إلى مكتبه للحديث في هدوء حيث يكون الشاب هو المترجم.

****

- متبنّى ؟ لم تخبرني الجارة بذلك..

- لأنّ لا أحد يعلم.

- لماذا تخفي شيئا كهذا ؟!

- أنا لا أخفي شيئا ، لكن لم يسأل أحد عن ذلك من قبل. أحقا هناك أشخاص يسألونك إن كنت متبنى ؟! أو إن كان والدك هو والدك الحقيقي.. لا أعتقد! كما أنّني لا أحب إخبار الناس بذلك.

- لماذا ؟

- لأنّني أكره أن يعاملني الناس بالشفقة.

- ولماذا تخبرني أنا ؟!

- لا أدري ، ربما لأنّك لن تخبري أحدا.

- وما أدراك ؟

- لأنّه ليس لديك أحد ، زوج غائب وجارة تلجئين إليها للوحدة لا للصداقة.

- كيف تعرف ذلك ؟! أستطيع إخبار الجارة..!

- ستفعلين ؟

- لن أفعل إن اخبرتني بالقصة.

- قد يعود زوجك.

- لا ، لن يعود ونحن لا نفعل شيئًا.

- لكنّه قد يعود ، وهو لا يعلم أنّنا لا نفعل شيئًا ، كلّ ما سيراه هو زوجته مع شاب في مثل عمرها مُجتمعان تحت منزله.

- والحلّ ؟!

- يمكننا نسيان الأمر.

- لا ، أبدا!

- حسنٌ ، نامي الآن وعندما تستيقظين اتصلي بي في الهاتف وسنتحدث. عليّ أن أغادر فاخوتي لم يأكلوا بعد.

- أتعدني ؟!

- أعدك

مضى ذلك اليوم دون اتصال منها ، ثم اليوم الذي بعده ، والذي يليه ، ثم فجأة رنّ هاتفه وكانت هي بصوتها الملائكي.

- أنتَ تدين لي بقصة.

- وأنتِ تدينين لي بعذر.

- عذر! لماذا ؟!

- عذر غياب.

- لم أكن أعرف أنّني في مدرسة أنت أستاذها!

- لم أذهب إلى مدرسة ، أتذكرين ؟

- حسنا ، سأخبرك بما حصل وبعد ذلك تُخبرني أنت بالقصة ، اتفقنا ؟

- اتفقنا.

- لقد انزعج زوجي من غرغرتي بالمياه الدافئة ، فأثار شجارا أسفر فيه اقتراحَ ذهابي إلى منزل أهلي إلى حين شفائي.

- ألا يبدو هذا قاسيا قليلا ؟

- نعم ، ولكنّه كان مُتعبا ومُنزعجا من العمل ، أنا لا ألومه ، كلُّ ما أفعله أنا هو الجلوس في المنزل بينما هو يعمل ليُعيلني ويدفع الفواتير.

- لديك حقّ ، نوعا ما..

- دورك.

- حسنا ، ماتت زوجة أبي ، وكان يحبها حبا جما ، فلم يستطع زواج من غيرها ، تركت له ثلاثة أبناء ، وكانت لها أُمنية بأن تتبنّى طفلا

وتُسعده ، فحقّق لها أُمنيتها أملا في أن يُسعدها الأمر عندما تلاقي ربها.

- أليس هذا هو الحب بعينه! إن متّ الآن فلن يكتشف زوجي جثتي إلّا بعد عودته ليلا ، لماذا اِختارك ؟!

- لأنّني الأكبر سنا ، هو لم يكن يبحث عن رضيع ، فلديه ما يكفي في منزله ، فرآني وقرأ ملفي ، هادئ ، مؤدّب ، أجيد الطبخ ، الكتابة والقراءة.. فاختارني على ما أظن.

- أ تقول لي أنّك كنت هكذا في الشخصية حتى قبل تبنّيك ؟!

- ماذا تقصدين ؟!

- الهدوء وقلّة الكلام وكلّ هذا الذي تريه للناس.

- إذا كنت تتكلّمين عن شخصيتي ، نعم ، لكنّني لا أري للناس شيئًا ، فالناس لا ترى إلا ما تُريد أن تراه مهما كان المنظر.

- كان هذا عميقا..!

- لقد علّمني ذلك شخصٌ له مكانة كبيرة في قلبي اسمه صادِق.

- من هو ؟

- زائر دائم لدار الأيتام التي كبرت فيها ، ومتبرّع كريم للدار أيضا ، كان يحضر لي الملابس والكتب ، ويجلس معي لساعات.

- لم كلّ هذا الاهتمام ؟!

- قال أنّني أذكره بأخته الكبرى ، ماتت بسبب السرطان.

- أسأل الله لها الرحمة ، هل انقطعت أخباركما عندما تبنّاك السيد الجراح ؟!

- لا. لا زلت أزوره ، إنّه مدير دار الأيتام الآن

نظرت إليه بتعجب ولم تنبس بكلمة

- بعد أن توفي أبوه عن عمر يناهز السابع والسبعين ، وأصبح هو المالك الوحيد لشركة والده ، باعها واشترى دار الأيتام كصدقة جارية على أبيه وأخته وعائلته كلّها ، كان يُدرّسني الكتب كلّ يوم ، ولا يزال يتصل بي أحيانا لأدرّس بدوري بعض الأطفال الصغار هناك ، إنّه دائم الابتسام ، أسأل الله له الخير.

- هل هو متزوج ؟ هل لديه أطفال ؟

- نعم

- لماذا لم يتبنّك ؟

- لا أدري ، لكنّني لم أُفكر في الأمر يوما ، لقد جعل دار الأيتام منزلا لي ، فلم أفكر بمنزل آخر غيره.

- هل تحبه ؟

- وهل في ذلك شكّ ؟ قد علّمني كلّ شيء أعرفه ودائما ما جعل همّي الآخرة دون الدنيا.

- يبدو أنّه شخص طيّب..

- إنّه كذلك ، هذه هي قصتي.. هل نحن متعادلان ؟

- حسنا نحن متعادلان ، أنا أطهو الغداء ، وسأرسل لك رسالة عندما ينضج.

- ظننت أنّك لن تطبخي لنا بعد الآن.. بعد أنْ عرفتِ أنّني أُجيد الطبخ.

- اصمت.. إنّها العادة ، تعال عندما تصلك رسالتي.

****

اتّصل التاجر بعشيقته ، ابنة الكهل أحمد ليلا ، واخبرها أنّه طرد زوجته من المنزل وسيرسل لها أوراق الطلاق قريبا ، فرحت العشيقة ولكنّها لم تصدقه ، فاخبرها أن تأتي غدا وتتأكد بنفسها ، وفعلا فعلت ، مرّت العشيقة على عشيقها في متجره صباحا فأعطاها مفتاح منزله واخبرها أن تذهب هناك وتبقى قدر ما تريد ، ففي النهاية سيُصبح منزلها أيضا ، وهي فعلت ، وما إن لمحت غياب الزوجة حتى عمَّها الفرح وقرّرت أن تُعطيه هديّة لطالما طلبها وطال صبره عليها.

أنهى التاجر عمله مُبكرا بعد أن اخبرته عشيقته بأنّها أعدّت له مفاجأة تلك الليلة ، وذهب لمنزله على عجل ، وحصل ما حصل ، أخذ عُذريتها بكذبة وبُرهان...

في الصباح الباكر استيقظ وأخذ المفتاح من حقيبتها ، ثم أخذ صورا عارية لها وهي نائمة ، وانطلق إلى العمل ، غادرت العشيقة

المكان بعد أنّ استيقظت ، ومنذ ذلك اليوم وهو يتجاهلها ، حتى أنّه وظّف عاملا يعمل في المتجر كي لا يقابلها أبدا ، مضت الأيام وادركت هي حقيقة الأمر ، كلّ شيء كان كذب ، وأنّها حمقاء انشغلت بالمظاهر ، أكثر المظاهر زيفا كانت تراها عندما تُقابل المرآة ، ادركت أنّ الحياة أكثر تعقيدا من هذا ، ومهما كانت ذكية وماكرة ، فسيكون دوما هناك من هو أكثر ذكاء ومكرا ، مهما كانت ثعلبا لبعض الخراف ، فهي أيضا مجرد عنزة لبعض الثعالب ، هكذا هي الدنيا.

بعد أن فرغت من التمنّي لو أنّ الزمن يعود لتَمحي ما فعلت ، تمنّت لو أنّ الأُمور انتهت عند هذا الحد ، لكنّه انتظر حتى هدأت الأمور ثم أصبح يبتزّها كلما أراد إرضاء نزواته ، ويهدّدها بنشر صورها وإفساد سمعتها وسُمعة والداها إن تجرأت واخبرت أحدا أو إنْ فكّرت بالاقتراب من منزله وإفساد زواجه ، أصبحت لعبته الخاصة ، التاجر كان يظّنّ أنّه الفائز ، زوجة وعشيقة ، مال ومنزل.

****

لم يكن في جوْف الشيخ سوى سُؤال واحد:

"كيف يُمكِن هذا وليس لديّ أيّ مال ولا تأمين ؟"

وبعد أنْ ترجم الشابُ لأبيه ، أجاب بأنّ الأمر عادي ويحصل طيلة الوقت ، وشرح له ببطء وانشراح صدر وابتسامة:

"أولا نجد شخصا مات حديثا ولديه تأمين يكفي لتغطية جراحة زوجتك ، ثم نُقنع عامل المشرحة أنْ يُبقي مكانه شاغرا ويتكتم عن موته كي لا يُلغى التأمين ، ثم لتجنّب الاصطدام بأي مشكلة ، من الآن فصاعدا سنُنادي زوجتك باسم الميت الذي اخترناه ، ثم نأتي بجراح لديه النية ليقوم بالعملية مجانا وهنا يأتي دوري ، الأمر المهم ، علينا إبقاء الأمر سرا عن مدير المستشفى وكلّ تابعيه ، وبإذن الله تخرج من هنا بصحبة زوجتك وابنتك.. لا تقلق على شيء ، اترك الأمر لنا وسيكون كلّ شيء على ما يرام بإذن الله".

كان نادر أن تجد قلبًا غريبًا عنك يُطمئنك بكلماتٍ تُدفّئ قَلبك المُضطرب في حين أنّ أقرب القلوب لك لم تبحّها لك ، لم يجد

الشيخ سوى دموعِ الفرحِ والعناق كوسيلةِ شُكره الوحيدة ، ثم توجّه لله بأخلص الدعاء.

- ابني أحمد ، خذ الشيخ أحمد إلى غرفة زوجته ، وارِه صُور المدير وأتباعه المعلّقة في الرواق كي يكون حذرا منهم.

- حسنا أبي.

- الشيخ أحمد ، اذهب معه ، وتذكّر ما إنْ نُعطيك اسم الميت ، عليك مناداة زوجتك بذلك الاسم ، وإن سألها أحد عن اسمها ، فاخبرها أن تجيب باسم الميت حتى لو كان رجلا ، أفهمت ؟

أومأ رأسه بالإيجاب ضاحكا قليلا عندما قفزت إلى عقله ذكرى زوجته عندما كانت تناديه بـ "أحمد" فيجيبها فورا محبة لها ومزاحا منه "طلبتني يا صابر؟". لم يكن قصده السخرية منها باسم رجل ، بل قصده وصف حالتها معه وهي صابرة ، وفكر في ماذا لو كان اسم الميت رحمه الله "صابر"!

- سأرسل بعض المساعدين ليُغيّروا الاسم على لوحة زوجتك ، وسنجري العملية الليلة ما إنْ يغادر مدير المستشفى.. اذهب وارتح في غرفة زوجتك ، وأترك كلّ شيء لي.

"سأفعل" هذا ما قاله الشيخ في نفسه "الآن فقط أستطيع الراحة".

جلس على الكرسي أمام زوجته يُدلّك لها رأسها ويُطمئنها ، وهي ضعيفة لا تقوى على الكلام ، يمسح جبينها تارة ويُقبّله تارة أخرى ، رحل الشاب إلى منزله دون تحيّة سلام ، فهو لم يعد يريد الشكر بعد الآن ، أحس أنّ الشكر أصبح يذلّ الشيخ من كثرة البكاء ، فرحل بصمت دون وداع ، دخل على الشيخ أحمد المُساعد وعرّف بنفسه على أنّه من سيساعد الجراح في العملية ، واخبره:

- من الآن فصاعدا اسم زوجتك هو "عبد الله".

لم يسَع الشيخ إلّا الابتسام والنظر إلى زوجته التي أحسّت بأنّه يضحك عن اسمها الجديد ، عرفت أنّها إنْ شفيت ، سيدعوها عبد الله لبقية حياتها.

قال لها بلغة الإشارة:

"من الآن ، هذا هو اسمك إذا سألك أحد ، إنْ أخبرت أحدا باسمك الحقيقي ، فسأغير اسمك قانونيا إلى عبد الله".

ابتسمت الزوجة ووضعت يدها على يده ، فأحسّ بضُعف قبضتها وقلّة حيلتها ، وعاد يُدلّك لها جبينها مُبتسما رغم ألم العجز الذي يُحسّ به إلى أن نامت ، لم يبق في قلبه سوى همّ ابنه الذي هرب تاركا أباه مُحمّلا بديّن كبير ، وشقيقه الذي حاول أن يُجرّده من منزله بثمن بخس كأن حياة زوجته وابنته رخيصة ، وكلّما زاد تفكيره ، زاد ألمه ، في الأخير لم يخرج منه سوى تأوّها مُرتعشا ، تَبِعهُ جملة في قلبه تقول:

"حسبي الله ونعم الوكيل"

****

أنهى مُدير المستشفى أحمد دوام عمله ، وبينما كان على وشك استقلال سيارته الفخمة التي اشتراها بدماء ودُموع الأبرياء الضعفاء ، تلقى اتصالا منْ نائبه في المستشفى.

- ماذا تريد ؟ لقد خرجت من المستشفى للتو

- آسف على الإزعاج سيدي ، ولكنّك امرتني أن أتصل بك عند أيّة حركة مشبوهة من رئيس الجراحين.

- ما الأمر ؟

- سيدي ، إنّه يتلاعب بالنظام مجددا ، يُريد إجراء عملية جراحية لشخص دون تأمين.

- لمن ؟

- أتذكر الشيخ أحمد ؟ ، زوجته هنا بسبب حملها رغم كبر سنها.

- نعم أذكره ، وكيف لا ، ذلك المزعج تبعني يوما كاملا متوسلا لمساعدتي ، متى سيقوم بها ؟

- الآن.

.يظن نفسه حذقا ، أليس كذلك ؟!

- أ تريدني أن آمر بإلغاء العملية ؟

- لا ، أتركه يقوم بالعملية.

- عذرا سيدي ؟!

- لقد سمعتني ، طفح الكيل ، بعد أن يقوم بالعملية سنبلغ الإدارة وسيمسكونه بالدليل القاطع ، يطردونه ونتخلّص منه للأبد.

- أ تظنّ أنّ الإدارة ستتخلّص منه لخطأ واحد ؟

- لقد قام بالأمر العديد من المرات ، لكنّنا لم نكتشف أمره فقط.

- أ تُريدني أن أزوّر بعض الملفات لعمليات غير مرخص لها باستعمال توقيعه ؟!

- أخيرا بدأت تتعلم!

- لكن سيدي ، سيقف ضدنا أمام الإدارة ، وكلّ المستشفى أيضا.

- كلّ طاقم المستشفى لن يكون ندّا أمام صوتي وصوتك ، بالإضافة لديّ بعض المعارف في الإدارة ، قد وقف في وجه أعمالنا مرات كثيرة ، حان الوقت لرميه من على الحافة ، مفهوم ؟

- مفهوم ، سأتدبّر الأمر الآن سيدي.

- لا تبالغ في أمر الملفات المزورة ، فهو أيضا لديه سُمعة يصعب كسرها ، فاجعل العمليات غير المرخصة تبدوا على طيب خاطر ونية صالحة.

- يمكنني أن أحضر بعض الرجال الذين قاموا ببعض العمليات بفضلنا ، ليشهدوا على أنّه هو من قام بالعمليات عليهم.

- هل أنت متأكد أنّهم سيغلقون أفواههم جيدا ؟

- مبلغ معتبر من المال سيجعلهم يخيطون أفواههم لا غلقها فقط.

- حسن إذا ، حضّر للأمر هذه الليلة ، وسأتصل بالإدارة غدا صباحا عندما أصل للعمل ، وراقب المرأة العجوز كي لا ينقلوها لمستشفى آخر بعد العملية.

ما إنْ اغلق هاتفه ضاحِكا فرِحا ، حتى هاجم عليه سارق في العشرينات من العمر ، وبعد شجار طويل نزف فيه الطرفان دما كثيرا ، فاجأ السارق أحمد الكهل بطعنة بسكينه الذي استلّه بينّما كانا متشابكان ، أخذ الشاب هاتف أحمد وماله ومفاتيح سيارته ، ثم هرب بالسيارة تاركا الكهل يحتضر وسط بركة الدماء والسكين مغروز في قلبه ، بعد عذاب طويل وبطيء ، أخذ الكهل آخر أنفاسه المتقطعة ومات.

****

مضت الأيام والشهور والفتاة الملائكية تتواصل مع الشاب اليتيم المُتبنى ، يتكلّمان عن الحياة ، كُلّما اقتربت منه احسّت بالذنب والندم ، ولكنها لم تكتفِ منه أبدا ، كأنّه فاكهة محرّمة عليها.. كأنّه مُخدّرها.

لم تعرف تلك الفتاة الجميلة ذي الصوت الملائكي حقيقة شعورها تجاه الشاب اليتيم ، فهي لم تعرف الحب يوما ، خوفها من الله جعلها

ترفض فكرة انجذابها لغير زوجها ، ولكنّها كانت تُفكر فيه كلّ الوقت ، أول ما يخطر على بالها عندما تستيقظ ، وآخر ما يخطر عليها قبل أن تنام هو أحمد ، ولا تستطيع الانتظار كي تطبخ الأكل كي تراه أو حتى تسمع صوته ، أصبحت تُزيّن طبخها وتضيف كلّ ما يشتهيه هو كي تثير إعجابه ، زوجها الغائب لم يساعدها بانشغالها عن التفكير عنه ، أصبحت تختلق الأعذار لتراه ، وتتسبب في بعض الضرر بأجهزة منزلها كي يأتي ويُصلحها ، فتراقبه من النافذة من لحظة خروجه إلى حين لحظة دخوله ، وكيفية تعامله مع الناس ، لا تتوقف عن السؤال: أ هي شخصيته الهادئة الغامضة ؟ أهي سُمعته ؟ أ هو حنانه واهتمامه ؟ أ هي قصته ؟ أو مزيجه المتكامل للنضج والمزاح ؟ أم قرب سنّه لسنّها على عكس زوجها ؟ أهو غياب زوجها عنها ؟ أهو الشيطان يُوسوس لها ؟ أم هو الجانب المتمرد من شخصيتها يُرغمها على اعجابها به ؟ أهو الوقت الذي تُمضيه معه جعلها تألفه ؟ أهو اشتراكهما في الكثير

من الجوانب؟ أم فقط لأنّه يجعلها تبتسم وتضحك؟ حتى وإن لم يكن أمامها ، مجرّد التفكير به يجعلها سعيدة.

الأسوأ في شعورها نحوه هو برودة أعصابه ، فهو لم يُبد أيّ شعور نحوها ولم يُعطها إشارة على حقيقة الأمر بينهما ، كلامه هادئ يجعل المتكلّم يظن أنّه لا يهتم بموضوع الحديث ، ظنّت أنّ سبب انجذابها له هو عدم انجذابه لها ، وكيف لا وجمالها يندثر بسببه القمر ، واحمرار خديها حياءً يجعل الشمس تُطفئ نارها ، وصوتها العذب يجعل دقات القلب تتوقف خوفا من مقاطعة كلامها ، وشبابها يجعل من الهرم أكذوبة. كانت تعلم أن الأمر لن ينجح بينهما ، لا دنيا ولا آخرة.. لكن سيكون جميلا لو بادرها الشعور فقط.

لم يكن لديها خيار سوى المتابعة ، فإن عاملتْه كما يُعاملها قد يُحس بالاختلاف ويرحل ، إنْ اعترفت له بشعورها فكلاهُما سيرحل ، هي لا يمكنها خيانة زوجها ، وهو لا يبدو عليه ابن حرام ، قرّرت بلع

أحاسيسها وطمر أمنياتها وإسقاط آمالها ، فالقرار بيد الله ، والله قد قرّر مصيرها فيما هو فيه خير لها ، هكذا آمنت..

على الرغم من ذلك ، لم تتوقف عن محاولة إثارة إعجابه ، فقد ادمنت على المحاولة ، ليس بالعطر النافذ ، أو اللّباس الجميل ، أو التبرّج الفاضح ، بل حاولت جعله يقدّر أخلاقها ، علمها في الدين.. ثقافتها.. اهتمامها.. خوفها عليه وسؤالها عنه.. بخدمته تماما كما لو كانت ستخدم زوجها لو كان حاضر.

هو لم يتبدّل قط ، ولم يحاول استغلال اهتمامها لمصالحه ، بل كان يُقدّرها.. يعينها.. يعذرها.. بل ويذكرها في الدّين والصلاة ، ويقصّ عليها قصص الصالحين ، فتملأ قلبيْهما شوقا للجنة والفوز العظيم ، لم يكونا أخا وأختا فبيْن الأخ واخته انشقاق واختلاف.. لم يكونا كالزوج والزوجة فبينهما رابط مقدّس يجمع شخصين مختلفين ذو آراء وشخصيات متغيرة ، تحت سقف واحد ، فيتحول الاختلاف إلى حب ومودة ، ولم يكونا كالصديق والصديقة ، فبين الصديقين حدود

إعجاب ، والبعد أو الانقطاع لن يوّلد الغيرة أو الاشتياق ، كلاهما رفضا المستحيل ، كلاهما رفضا الواقع..أنّ بينهما حبّا.

****

تعفّنت جثة الكهل ولم يتفطّن لها سوى بعض الكلاب المشرّدة الجائعة التي نهشت منها بالقدر الكافي لتجعل أمعاءه خارجا ، ورائحته غير محتملة ، كلّ من يراها يقول أنّها ميتة شنيعة لإنسان شنيع ، لم يكن صعبا على الشرطة معرفة القاتل بعد كلّ ما تركه من أدلّة.. الدم وسط الاشتباك.. والبصمات على السكين ، لم يبق سوى تعقّب السيارة وإمساك القاتل.

تمت عملية العجوز بنجاح تام بعد سبع ساعاتٍ متواصلة من الانتظار والتعب ليلا، تسنّت للشيخ فرصة حمل ابنته الأولى ، والشعور بيدها تضغط على إصبعه بقوة ، لأول مرة ضحك ضحكا صافٍ دون بكاء.

زوجته من الجهة الأخرى كانت ضعيفة وصحتها لم تسمح بمغادرة المستشفى أو تغييره ، ولكن الله كانت له خطة أكبر والرحمن أرحم ، انشغل الجميع بموت مدير المستشفى وبميتته الشنيعة ، فلم يبال أحد بما يحصل داخل المستشفى ، ونائب المدير ، انشغل بمشاكل لم يتوقعها.

بينما كانت الشرطة تحقق أمام الجثة ، فتح المحققون حقيبة المدير طمعا في أدلّة أكبر ، ولكن ما وجدوه كان أعظم ، فبدل الجريمة كانت هناك جريمتان ، اكتشف المحقّقون في حقيبة عمل المدير أوراقا وملفات لعمليات اختلاس وسرقة وتوظيف عمال دون خبرة ولا مستوى تعليمي ، وكلّ التواقيع كانت للمدير ونائبه ، اجتاحت الشرطة مكتب النائب وامسكوا به بالجرم المشهود يحاول إحراق باقي الأدلّة ، وفي عجلته وقلّة تركيزه مع خوفه ، لم يحرق سوى الملفات التي كان ينوي توريط رئيس الجراحين بها ، ولم تُمسكه الشرطة إلّا بملفّاته المزورة الخاصة به هو والمدير.

لانعدام الإشراف على المستشفى ، قامت الإدارة بترشيح رئيس الجراحين مديرا عالليه كفترة اختبار له إلى أن يتم تثبيته رسميًّا ، لحبهم له رحب جميع طاقم المستشفى بفكرة جعلهِ المدير ممّا جعل الإدارة تُثَبّت ترقيته في وقت أسرع ، انشغالا منهم بالشرطة التي أصبحت تتعقب كلّ من شارك في عمليات الاختلاس والسرقة والتوظيف ، كان أول قرار له كمدير للمستشفى أن يسمح للشيخ وزوجته بالبقاء إلى أن تتعافى زوجته كليا.

علم الشيخ العجوز أنّ زوجته وابنته بأمان ، وحمد الله من أعماق قلبه بكل إخلاص ، لكن التفكير الكثير هو ما يضع الإنسان في بئر الاكتئاب الجافة من أية حلول ، العقل لا يستطيع التوقف عن التفكير ، بدل الاستمتاع باللحظة ، سيطرت على رأسه مخاوفه من خسارة منزله القديم أمام دُيون الحكومة.. دُون ذِكر ديون الناس.. مصاريف ابنته.. انعدام الأثاث والكهرباء والماء والغاز ، يُفكر دون انقطاع في مشاكل ليس بمقدوره حلّها ، إن كانت لدينا مشاكل لا

نستطيع حلّها ولم نُسبّبها لأنفسنا لا بذنوبنا ولا بقراراتنا الغبية ، فلم نقلق بشأنها ما دمنا لا نستطيع حلها ؟! فلنتركها بيد الله ولنستغفره يجعل لنا مخرجا من حيث لا ندري.. لنبتسم ولنعِش اللحظة قبل أن تمرّ ولا تعود أبدا.

أراد الشيخ أحمد أن يستمتع باللحظة ، ولكنّه كلما حمل ابنته بين ذراعيه خاف من فشله معها كما فشل مع ابنه البكر ، خاف ألّا يكون على قدر المسؤولية ، فالله قد أرسل له هؤلاء المحسنين الآن وقد لا يكونون هناك لاحقا ، نسي أنّه حتى إنْ غاب المحسنون المُرسلون ، فلن يغيب أبدا الله الذي أرسلهم.

ما لمْ يعلمه الشيخ أحمد ، هو أنّ الشرطة تعقّبت السيارة ووضعت مُذكرة اعتقالٍ في كلّ دوائر الشرطة في البلاد إلى أن وجدوا السيارة مركونة قبالة شاطئ البحر ، وفيها جثة شاب وكيس أموال ومخدرات ، سبب الوفاة كان جرعة زائدة.. خوفُه وتوترُه من سرقة والده وتشرّده

وقتْل صاحب السيارة وسرقتها ، جعله يزيد الجرعة هربا من الواقع ، فمات ميتة شنيعة ملأت السيارة برائحة العفن والجيفة.

بعد التحاليل ، تعرفوا على هوية جثة القاتل على أنّه ابن الشيخ أحمد ، حكى الشيخ أحمد جانبه من القصة للشرطة بلغة الإشارة وسط الدموع على فراق ابنه ، وسرعان ما تحولت شهادته إلى قصص وذكريات عن ابنه عندما كان في سن البراءة والزهور ، كيف كان يصعد على كتفيه ويستعمل رأسه الأصلع كطبل له.. وعندما يطلب منه إحضار كوب ماء له ، كان يصّر على أن يُشرِبه إياه بنفسه فيذهب نصف الماء على ملابسه بدل فمه.. كيف كان يُعانقه من قدمه بشدّة رافضا إياه المغادرة للعمل.. كيف كان يأتي ويستلقي على حضنه إلى أن يغلبه النعاس ثم يذهب لفراشه.. وإن لم يفعل فلا ينام طوال اللّيل.. كيف كان يأتي على حين غرّة ويضع يديه البيضاويتين الصغيرتين الباردتين على خديه المحترقتين من الشمس ويقبله على كلتا خدّيه ثمّ كلا عينيه ثم جبينه.. كان ذلك يستحق التّعب والعمل

وحروق الشمس كلّها..توالت الذكريات وانبثقت منها دُموع كلّ من حوله وأوّلهم الشاب أحمد الذي ترجم كلّ شيء حرفا بحرف ، كان صعبا على الشرطة التخيل أنّ تلك الجثة المتعفنة المسمومة بالمخدرات التي سرقت وقتلت.. كانت تنبض بالبراءة يوما ، رضيَ الشيخ أحمد بالقدر ، ورسم ابتسامة مع كلّ ذكرى يحكيها ، خبّأ الشيخ مشاعره الحزينة تحت قناع السعادة أمام زوجته المريضة ورفض إخبارها بالخبر حتى تتعافى كليا داعيا الله أن يرضيها بقدره كما أرضاه.

****

لم تكن زوجة المدير حزينة على موت زوجها أكثر من حُزنها على خسارة بيْتها ، ولا البنت على خسارة أبيها أكثر من خسارة مصدر رفاهيتها ، كان أحمد الكهل كالورقة اليابسة التي خلّفها الخريف ، ما إن ماتت حتى طارت بها الرياح إلى صفحات النسيان لتختفي إلى الأبد ، قد تمّ تغريم زوجها الرّاحل بأموال تبلغ قيمة ما اختلسه ، وبما

أنّ المنزل مكتوب باسمه ، فلم يكن لهم حلّ سوى مصادرة المنزل بكلّ ما فيه من ممتلكات ، وكلّ ما هو باسمه من ثروات وحسابات بنكية ، مِمَّا ترك الزوجة وابنتها بلا شيء بما أنّها كانت تشارك زوجها في حساباته.

بينما هي في منزلها ، تلقت زوجة المدير زيارة مفاجئة من أعز صديق لزوجها ، كان أكثر ثراء من زوجها وأقربهم إليه ، بعد التعازي على الفقيد ، أثبت الزائر أن صديق الثعلب لن يكون سوى ثعلبا آخر ، وما إن وجد الفرصة حتى غَدَر وخان.

- لقد سمعت أنّهم يقومون بمصادرة المنزل.

- ليس المنزل فحسب ، بل كلّ شيء.

- متى ؟

- بعد سبعة أيام.

- وأين ستعيشين ؟

- في عيادتي ، سأعمل في النهار وأنام هناك في الليل.

- وابنتك الجميلة ؟

- معي ، إلى أن تتحسن أوضاعنا.

- أ ليس هذا تغييرا كبيرا لكليكما ؟ أتستطيعان احتماله ؟

- أنا لا أستطيع أن أنام بمقر عملي ، فهو أكثر مكان يغضبني ، في النهار يعجّ بالمرضى القذرين ، وفي اللّيل يعجّ بأصوات شكواهم التي لا تُغادر عقلي.

- مؤسف أن تخسري هذا البيت ، فهو قصر.

- سأخسره بفضل زوجي النذل ، كتب كلّ شيء باسمه ولم يفكر بنا.

- كما أنّه البيت الذي ترعرعت فيه الجميلة منذ أن ولدت ، أين هي بالمناسبة ؟

- ليست هنا ، إنّها تقضي الأيام عند صديقتها ، لا أدري إن كانت تهرب من الفضيحة أم مني.

- أ لم تتحدثا ؟

- لا ، لم نتبادل التعازي حتى ، هي لم تحضر الجنازة.. جنازة والدها

- إنّه وقت عصيب بالنسبة لها.

- ولي أيضا ، بين ليلة وضحاها ، اختفى كلّ شيء ، وتغيّر كلّ شيء

- ليس على الأمور أن تتغيّر..

- ماذا تعني ؟

- أستطيع إصلاح الأمور كما تعلمين.

- كيف ؟!

- أستطيع دفع الغرامة ، وبهذا ترثين أنت كلّ شيء ، المنزل ، الممتلكات ، الحسابات البنكية..

- ماهي الخدعة ؟

- لا خدعة ، ولكن هناك ثمن.

- ماهو ؟

- الجميلة.

- ماذا تقصد ؟

- أريد الزواج بالجميلة ، وبالمقابل سأدفع كلّ ديون زوجك.

- تريدني أن أبيع لك ابنتي ؟

- فكري في الأمر كأنّه ثمن المهر.

- ابنتي ؟ ولكنّك.. صديق والدها العزيز.

- وماذا في ذلك ؟

- لقد كنت حاضرا من يوم ولدت إلى يومنا هذا ، حتى أنّك غيّرت لها الحفاضات!!

- ولكنّها كبرت لتصبح فتاة جميلة جدّا ، لقد جذبت عيني منذ أن بلغت السابع عشرة.

- ولكنّك متزوج..

- بثلاث ، ما الخطب إن جعلتها الرابعة.

- هل تظنّ أنّ زوجي كان ليوافق ؟

- لماذا أتحدث إليك وليس زوجك ؟! لو ظننت أنّ صديقي سيزوجني ابنته لطلبت يدها يوم بلغت الثامن عشرة.

- إذًا أنا لن أوافق.

- فكري بالأمر ، هل تظنين أن زوجك كان وفيّا؟ لديه حسابات بنكية لم تعرفي عنها شيئا ، لماذا في رأيك خبّأها عنك؟ هو لم يكن وفيّا لك ، فلماذا تهتمين برأيه الآن.

- ولكنّها ابنتي..

- وستبقى كذلك

- ستدفع غرامة زوجي التي تفوق الخيال فقط لأزوجك إياها؟ لماذا؟!

- لأنّك سترغمينها على الزواج بي.

- ولماذا لن توافق؟

- لأنني قبل سنتين راودتها عن نفسها في مكتب والدها وحاولت اغتصابها ، ولكنّها كانت قوية ، لا أظنّ أنّها ستوافق بسهولة.

- أنت وغد حقيقي!

- وهذا هو السبب الرئيسي لعدم قبولها بي ، لذا عليك إرغامها.

- وإن لم أفعل؟

- ستخسرين كلّ شيء ، وبدل النوم في سريرك الحريري ، أو السفر إلى مدينة جميلة لقضاء العطلة ، ستكونين في مكتبك.. يوم بعد يوم ، حتى تُمتصّ منك الحياة ببطء.

بعد هذه الكلمات القليلة ، كان مُتوقعا ما ستقوم به كخطوتها التالية ، لم تكن جالسة في الزاوية المُظلمة من غُرفتها تُفكر فيما إنْ كانت ستبيع ابنتها أم لا ، بل كانت جالسة هناك تفكر في كيفية إقناع ابنتها ببيع نفسها له ، امضت اللّيلة تفكر ، لم يسمح لها عقلها بالتفكير في خسارة ثرائها في سبيل ابنتها الوحيدة ، فكرت في كلّ كذبة.. في كلّ حيلة.. ولكنّها لم تصل لحلّ أفضل من الصّدق.

اتصلت بها صباحا وطلبت منها أن يلتقيا في أحد المطاعم الفاخرة عند منتصف النهار ، لم تذكر السبب ولكنّها ذكرت أنّ الأمر عاجل ويخصّ الأعمال.

التقتا على الغداء ليس كما تلتقي الأم ابنتها.. وليس كمن فقدت للتو أباها أو زوجها.. بل التقتا كصديقتين ضاحكتين مبتسمتين لا همّ لهما في الدنيا.. تحادثتا.. تسامرتا.. ضحكتا.

شيئا فشيئا أخبرتها أمّها أنّهما سيخسران المنزل والأموال وكلّ شيء، وجعلت صوتها وكلامها وتعابير وجهها تبدو كأمّ عاجزة عن توفير سقف يحمي ويستر ابنتها، وبعد أن شاركت ابنتها البكاء والعناق، أخبرتها بالحلّ الوحيد كخيار يستحيل قبوله.

- أ تصدقين أن صديق أبوك المقرّب طلب يدك مني مقابل تخليصنا من الديون!؟

- حقا ؟! وبماذا أجبت ؟

- لا طبعا، إنّه بمثل عمر والدك، وصديقه المقرّب!!

- ماذا كان اقتراحه كاملا؟

- يخلّصنا من الديون ونحتفظ بالمنزل مقابل الزواج بك، أنت لا تفكرين بالقبول، أليس كذلك ؟!

- ولم لا ؟! سيخلّصنا من مشاكلنا..

- ولكنّه.. عجوز ، ومتزوج من ثلاث..

- ارسلي لي رقمه ، سأتصل به.

- لماذا لا تزورينه في مكتبه ؟

- الآن ؟!

- نعم ، لقد قال أنّه مرحب بنا في أيّ وقت.

- حسنا ، سأذهب.

- أ لن أذهب معك ؟

- لا ، سأقوم بهذا بنفسي ، عودي للمنزل وارتاحي ، سأعود في المساء.

- انتبهي على نفسك منه.

- لا تقلقي ، عليه أن يحذر مني.

لم تكن نيّة الفتاة إسعاد أمها ، ولم تكن نيّتها إنقاذ منزل طفولتها ولا ممتلكات والدها ، بل كانت لها خطة أكبر وكيد أعظم.

دخلت على مكتبه كفتاة لا تبالي بما سيحصل بعد ذلك ، دخلت عليه كفتاة فقدت الرغبة بالحياة.

- أهلا ، أهلا بالجميلة..

- فلنقطع المجاملات ، أنت تريدني وأنا أريد منك شيئًا.

- أكثر مِمّا سأفعل ؟!

- ذاك فعلته لأمي ، أما هذا فلي.

- إذن اخبريني.. ما دمت ستصبحين زوجتي بعده ، فلن أرفض لك طلبا.

- أشكّ في هذا ، طلبي غير معتاد.

- المقصد ؟!

- المقصد يأتي بعد القصة ، والقصة فيها اختصار.

- إذن اوجزي..

- لقد تم خداعي من قبل رجل في مثل عمرك ، وانتهي بي الأمر في فراشه ، والآن يبتزني بصور فاضحة أخذها لي ، إن كنت تريد الزواج بي ، فعليك الاهتمام به.

- أ فقدت عذريتك ؟!

- دعنا لا نتظاهر بالعفّة ، أنت لديك ثلاث زوجات وعشرات من العشيقات ، كما أنّك حاولت اغتصابي أكثر من مرة ؛ إن كنت تريدني فخذني كما أنا ، وإن كنت لا تريدني فسآخذ منك أكثر ممّا ستعطي لأمي بالدليل والصورة والشهود ، ففي النهاية.. لست الوحيدة التي حاولت إيقاعها في الفخ ، لكنّني من القلة اللواتي نجون.

- لديك جانب لم أره قبلا ، هذا يعجبني..

- تولى الأمر وسأجعلك تُحبه.

- دعينا لا نستبق الأمور.

- ماذا تعني ؟!

- أنا رجل واسع الحيلة ، لست غبيا..

- وأنا لم أعتقد ذلك.

- تزوجيني أولا ، ثم سأهتم بالرجل.

- أ لن يجعلني ذلك أنا الغبية ؟! ماذا إن تراجعت عن قرارك بعد الزواج ؟

- لن أتراجع.

- وهل سأصدق كلاما يخرج منك ؟

- لا ، ولكن لدي شرفي.

- والمغزى ؟

- كل من يهدّد سمعة زوجتي ، فهو يهدّد سمعتي ، شرفك هو شرفي.. يا زوجتي.

- جيّد.

- هل تريدين الصور فقط ؟

- بعد كلّ ما فعله لي ، لا.

- أتريدين مني تعذيبه ؟

- لا.

- ماذا تريدين إذن ؟ أعزمه على العشاء ؟!

- أريد منك أن تقتله.

مات ابن الشيخ الذي سرق ماله وتركه في حيرة.. مات المدير الذي حاول أن يطرده من المستشفى دون اعطاءه فرصة لإنقاذ زوجته العجوز وابنته.. والآن سيموت أخوه الذي حاول أخذ بيته الوحيد مقابل حفنة من المال ، كلّ هذا بسبب جملة قالها مظلوم "حسبي الله ونعم الوكيل".

بعد الانتهاء من التحقيق والتأكد من كلام الشيخ أحمد ، أعادت الشرطة له كيس المال الذي كان مع جثة ابنه ، لم يفهم الشيخ ،

أ يبكي لفرحته بعودة الأموال؟ أم يبكي لحزنه على ابنه الميت؟ فاختار الصمت ، أمسك الكيس وخرج مباشرة من المستشفى ليُعيده للحكومة ، ولم يبق أمامه سوى ديون الناس ومصاريف الضَيفة العزيزة المباركة التي حلّت على منزله الفارغ من الأثاث المحاط

بالمرض ، ولكنّه تأكد أنّ الله معه ، فلقد فتح له بابا بعد باب ، وكلّه ثقة بربه في فتح المزيد لحين الفرج ، لم يجد سوى الشكر والصلاة لله رب العالمين.

****

كانت ذات الصوت الملائكي في فراشها تحاول النوم رغم أصوات زوجها العالية في الحمام يستحم ، ولكنّها لم تستطع ، أخذت هاتفها تلعب به حتى زارها الفضول وجعلها تتساءل عن مكان هاتف زوجها ، اتصلت برقم محجوب على هاتفه ، وما إن رنّ حتى اغلقت الاتصال بسرعة كي لا ينتبه زوجها ، كان هاتفه مخبّأ تحت الفراش ، اخذته بسرعة ومسحت الاتصال التي قامت به ، ثم اخذت تتصفحه حتى صُدمت بصور فتاة عارية لم تكن تقْرُبها جمالا حتى.. في منزلها.. في فراشها.. نائمة على وسادتها.

لم تخرج منها أية ردّة فعل.. لم تخف.. لم تغضب ، في الحقيقة ، لم تشعر بشيء سوى قليل من السعادة والراحة تجتاح صدرها ،

وقليل من الدهشة لشعورها بالسعادة بدل الإحباط ، أعادت الهاتف أين كان ، ثم انقلبت على الجانب الآخر وغاصت في تفكير عميق ، ليس في خيانة زوجها ، بل بالشاب اليتيم ، كأنّها أعادت عقلها إلى تصرفات الصبا.

"أ يخون هو ولا أخون أنا ؟! خيانته قذارة ونجاسة.. وخيانتي حب عذريّ".

نامت تفكر في الطرق التي ستعترف بها للشاب المحترم أحمد بحبها ، وتحلم بجوابه ، لم تضع في بالها فكرة رفضه لها ، أو خسارته للأبد ، بل قدّمت الشعور بالسعادة لقبوله على الشعور بالتعاسة لنفوره ، أصبحت على الفور تتخيّل وترسم الأحلام ، وتنتج الأفلام عن حياة لم تخلق بعد.. عن حب في المحظور وإن كان أعذر.. عن حب لا تعرف إن كان من طرفين أو من طرف واحد.

نامت تلك الليلة كأنّها طفلة صغيرة في غرفتها القديمة بين والديها ، لا همّ تفكر فيه ، ولا مستقبل تنشغل به ، بل مجرّد سعادة

اللحظة وفقط ، عندما استيقظت شعرت بنشاط لم تشعر به قبلا ، كأنّ هناك مادّة افرزها جسمها خلال نومها فأصلحت كلّ عظامها ، وشفت كلّ آلامها.

أخذت هاتفها وارسلت لأحمد رسالة لم تقل فيها سوى كلمة عبّرت عن كلّ شيء.. كلمة اغلقت كلّ الشكوك ، واوضحت كلّ الغموض ، وشرحت كل المعاني.

"أحبك".

بدأت كالمجنونة تتراقص في أرجاء المنزل والهاتف في يدها ، تتوقع منه الإجابة بالمثل أو أفضل ، تتوقع منه المحبة ، ما إن رنّ هاتفها حتى أحست بقلبها توقف ، ولمّا قرأت ، لم تجد منه إلّا كلمات زادت حبها له ، وكسرت قلبها الذي قبل قليل قد نبض من جديد.

"أخاف الله ربي".

****

- أ تريدين منّي أن أقتله ؟!

- نعم.

- هكذا ، بكلّ برودة!

- نعم.

- أتمزحين ؟ تريدين منّي قتل رجل للزواج منك ؟!

- أريد منك قتل حيوان و ليس رجل ، هو مجرّد حيوان ككلب مشرّد.. ومن منّا لا يريد قتل كلب مشرّد ينبح ليل نهار ولا يتركك تنام ؟

- لن أفعلها ، لن أقتله.

- إذا ، لا يوجد اتفاق.

- هذا جنون ، إذا كان الأمر سهلا جدّا بالنسبة لك ، فافعليها أنت.

- سأفعل إذا ، ولكنّني أحتاج مساعدة.

- أية مساعدة ؟!

- هو حيوان ضخم ، وأنا فتاة صغيرة.

- وما المطلوب مني ؟

- اختطافه..

- من جريمة إلى أخرى.. من الإعدام إلى سجن مدى الحياة..

- لديك الكثير من الناس الذين تدين لهم بالمال الكثير ، ومتأكدة أن اثنان منهم أو ثلاثة سيرغبون بإلغاء الدّيون مقابل خدمة.

- وماذا سأطلب منهم تحديدا ؟

- أشياء بسيطة.

- مثل ؟

- تخديره ، توصيله إلى مكان محدّد مُقيّدا.. وسأهتم أنا بالباقي.

- أيّ مكان ؟!

- كلّما قلّ ما تعرفه ، قلّ إذنابك

- هذا جنون..

- الجنون هو أنّك ستفعله من أجل الحب.. والجريمة هي أنّك ستفعلها لأجل غرام فتاة في عمر ابنتك الصغرى..

- كما قلت ، يعجبني الجزء الجديد فيك.. لاذع.. أحب الطعام اللاذع.

- إذن ستفعلها ؟

- متى الموعد ؟

- احضر لي الرجال ، وسأهتم بالباقي.

- سأحضرهم بعد الزواج إن أردت.

- لا ، احضرهم في يوم العرس ، في الحفلة.

- لماذا ؟

- عذر غياب في حال ما طرأ خطب ما ، من سيظنّ أنّ فتاة تركت حفلة عرسها لتقتل شخصا ؟

- متى تريدين الزفاف ؟

- في أقرب وقت ، ولا أريد مجرّد رجلين مدينين عاديّين.

- وماذا تريدين ؟

- رجلان شابّان شديدان دون عائلة ، وليس لديهما شيء ليخسراه.

- لماذا ؟!

- لأنّ الرجل ذو العائلة إذا تمّ القبض عليه سيشي بنا ، لأجل عائلته ، أمّا الوحيد فسيفعل ما آمره به دون كلمة أو تساؤل ، سأجعلهما يضعان أقنعة وقفازات تحسبا لأيّ شيء.. لا تقلق.

- تفكير صائب ، لقد بدأت أخاف الزواج منك.

- يجدر بك ذلك.

ومن هنا تقرّر مصير صاحب المتجر ، ولكنّها لم تكن مهتمة بقتله أكثر ممّا اهتمت بطريقة قتله ، كانت تريده أن يعاني ، كانت تريد أن تأخذ روحه كما أخذ هو روحها ، كانت تريد أن يموت بجسد قذر ونتن ، كما جعلها تشعر بأنها قذرة الروح نتنة الجسد.

في حفلة الزفاف ، جعلت إحداهن تلبس الفستان الأبيض الجميل الساتر للوجه ، بينما هي غادرت لتقضي أسوء ليلة سوداء ، ذهبت إلى الموقع المتفق عليه ، ووجدته هناك مخدّرا ومُقيّدا. كان المكان الذي اختارته هو المجاري المليئة بفضلات البشر.

نزعت عنه الكمامة ، وايقظته بالصفعات ، شاهدته ببرودة وهو يبكي ويترجى ويتوسل الحياة ، يطلب منها الغفران.. الفرصة الأخيرة لأجل أنْ يصحّح خطأه ويحترم كلمته ويتزوج بها ، حافظت على صمتها ، وعلى وجهها تعلو ابتسامة هادئة تجعل الأبدان تقشعر ، كأنّها خُلقت لتقتل.. كأنّ القتل مصدر سعادتها وشهوتها في الحياة.

نزعت منه الهاتف ، ومحت كلّ الصور ثم اعادته إلى جيبه ، كانت تعلم أنّه لا يحتفظ بالنسخ ، فهو لا يستطيع الاحتفاظ بالنسخ في منزله وزوجته هناك ، ولا في بريده الالكتروني فالعامل عنده يحتفظ فيه بسجلات المبيعات ، وتعلم جيدا أنّه لم يخبر أحدا ، فهو لن يُخاطر أبدا بإفساد سُمعته ونظرة الناس إليه.

ربطت حبلا على عنقه كأنّه كلب مشرّد ، هي في صمت مبتسمة ، وهو اختلطت دموعه مع مخاطه من شدّة البكاء ، قيّدت كلاًّ من قدميه ويديه ، ثم ربطت الحبل بأحد القضبان المتينة الثابتة في المجاري ، ذهبت إليه وجلست القرفصاء بجانبه ، نظرت إلى عينيه

الدامعتين نظرة أخيرة في هدوء تام ، ثم نهضت ودفعته بقدمها نحو مياه المجاري المندفعة بقوة.

ذهبت إلى الزاوية بصمت وابتسامة ، جلست تشاهده يغرق ببطء وسط فضلات غيره.. تماما كما جعلها تحسّ بقذارة جسدها ، يغرق تارة ويتوسل تارة أخرى كلّما وجد الفرصة لأخذ نفسه ، يداه وقدماه المقيدين تمنعانه من السباحة ، والحبل الممتد من عنقه يمنع التيار من أخذه ، كانت جالسة في صمت مستمتعة بالمنظر لحدّ الغثيان ، شيئًا فشيئًا انقطع صراخه ، وتوقفت توسلاته ، وغابت فيه المقاومة لأجل الحياة.

بقت جالسة لبرهة تشاهد جثته المربوطة يُحاول التيار جرّها ، ثم نهضت وجذبته نحوها مستعملة الحبل المربوط حول عنقه ، فتحت سحاب سرواله وفكت قيود يديه ورجليه ثم حرّرت عنقه من الشيء الوحيد الذي منع التيار من أخذه وأعادته إلى القذارة لتسبح به بعيدا ، كانت خطتها كاملة. الجثة سيأخذها التيار ويخرجها إلى سدّ

المدينة للمعالجة والصرف الصحي. احرقت الحبال التي كانت تربطه بها، ثم ارتدت ملابس رجل وقبعة وقفازات، وركبت في سيارته وأخذتها نحو السدّ واوقفتها هناك، ذهبت إلى حافة السد وجعلت صخرة ضخمة تنزلق من هناك لتصنع أثرا في الحافة مُشابها لانزلاق شخص.

خطتها كانت بسيطة ولكنّها متماسكة، ولا شيء أجمل من البساطة، بعد اختفاء الزوج، ستُبلّغ الزوجة الشرطة الذين بدورهم سيبحثون عن السيارة، وبعد أنْ يجدوها على حافة السدّ، سيلاحظون انزلاق التراب والحجر ممّا سيجعلهم يفكرون في احتمالية سقوطه، بعد أن يجدوا الجثة في السدّ سيلاحظون السحاب المفتوح، فيخرجون بالفرضية التالية: كان يقود سيارته، أحسّ برغبة في قضاء حاجته فتوقف أمام السد، وما أن فتح سحابه على الحافة حتى انزلقت به التربة، فسقط وغرق، ميتة شنيعة أخرى.

سَمّوها دعوة مظلوم فقد كلّ سبب للحياة ولكنّه لم يفقد الإيمان بربه ، سمّوها ما ينتج من الروح البشرية بعد أن تُدفع نحو اليأس وحافة الانهيار ، سمّوها مُخيّلة فتاة فقدت أعز ما تملك وقضت اللّيالي تحلم بالانتقام... أو سمّوها خطة الرب من البداية ، هذه هي الحياة ، معقدة والطرُق فيها أكبر ممّا سنفهم يوما ، ودومًا ستكون إلى أن يُؤذن لها بالنّهاية.

****

كان الأمر غريبا ، تلقى الشيخ نبأ وفاة ابنه وأخيه ، وكلاهما بميتة لا تُشرّف ، كان غريبا ، الفتاة ذات الصوت الملائكي في منزلها تتلقى التعازي على وفاة زوجها ، والشاب أحمد في العمارة المقابلة يقدّم التهاني لأبيه على ترقيته.

لم تلتق الفتاة ذات الصوت الملائكي عائلة زوجها أبدا ، فرحبت بأخيه ترحيبا كبيرا لم يُقدّمه له أخوه الأصغر يوما ، قدّم لها التعازي واستأذن للمضي في طريقه.

- إلى أين ؟!

- المستشفى.

وبعد الفضول والسؤال ، شرح لها الوضع مع زوجته:

- أ كنت تنام في المستشفى ؟!

- لا ، بفضل الله التقيت بشاب في العمارة المقابلة ، هو الذي يأويني

- من ؟!

- شاب اسمه أحمد ، وله من خصال النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من اسمه فقط ، بارك الله فيه.

- أحمد ؟! أ تعرفه ؟!

- طبعا ، هو الذي عرّفني على أبيه الجراح ، الذي أجرى العملية على زوجتي وانقذ ابنتي بالمجان.

- ولماذا لم تطلب المال من أخيك ؟

- فعلت..

- وأعطاك ؟

- ليس بالضبط.

لاحظت عليه التوتر، فهو لم يكن يريد تخريب سُمعة أخيه الميت أمام زوجته الأرملة الحديثة، ولكن بعد إصرارها، قصّ عليها كلَّ القصة من أوّلها لآخرها، اخبرها عن فضل الله ثم الشاب أحمد عليه.. ذلك الشاب الشهم الهادئ قليل الكلام كثير الابتسامة الذي رفض حتى كلمة الشكر.

كان البيت مكتوبا على اسمها، فحصلت عليه، رحّبت بالشيخ وعائلته للبقاء معها ولكنّه رفض، المتجر الكبير كان باسم زوجها، فأعطى الشرع كلّا منهما حصته، وقرّر الشيخ وأرملة أخيه أن يسترزقا منه معا.

كانت نية الشيخ أن يرسل زوجته وابنته للقرية، ليعيشا في منزلهم بينما هو يبقى هنا، يعمل في المتجر وينام فيه، يُفارق عائلته ويُرسل لهم المال وقت ما استطاع إلى أن يفتح الله باب الفرج فيدفع ما يدين به للناس ويضع عاملا في المحل، ولكن أحمد، كانت له

خطة أفضل ولم يقبل الرفض من الشيخ مهما ألحّ عليه ، حتى قبل الشيخ بخطة أحمد.

كانت نيّة أحمد أن يعيش الشيخ وزوجته وابنته الرضيعة في منزله ، فالأولاد يحتاجون أمّا ، والرضيعة تحتاج مكانا صحيا قريبا من المستشفى والعيادة ، ويبيع الشيخ منزله في القرية ليدفع به ديون الناس ويخبِّئ الباقي ، ثم سيقوم أحمد والشيخ بالعمل في المتجر ، النصف سيذهب للأرملة والنصف الآخر للشيخ حتى يُوفر مالا كافيا لمنزل مريح وجميل لعائلته. دون مشقة.. دون استعجال.. دون إيجار.. دون قلق.. دونهم.. والأهم دون فراق الشيخ لابنته الرضيعة.

لم يستطع الشيخ إظهار امتنانه بالقدر الكافي ، ولكن ملامح وجهه اظهرت سعادته ، وما أن بدأ بالبكاء حتى أمسك أحمد رأسه وقبّله على جبينه ، مسح دموعه وقال مباشرة مواجها عينيه المجعدتين:

- لا مزيد من البكاء بعد اليوم..

- لماذا تفعل كلّ هذا يا ابني ؟!

- لقد اعتدت عليك يا شيخ.. كما أنّ اسمك يُعجبني!

- بارك الله فيك يا أحمد

- وفيك بارك يا أحمد.. أتعلم؟، طالما أنّنا سنبقى تحت سقف واحد، فيجب علينا أن نغير أسمائنا لنتجنّب الحيرة. ما رأيك أن أدعوك بأبي؟

بكى الشيخ أكثر مُعانقا أحمد بقوة لأجل كلمة "أبي" التي لم يسمعها منذ زمن بعيد، ولم يشعر بحلاوتها منذ أن تغيّر ابنه عليه.

سارع الشيخ لأرملة أخيه كي يخبرها بالخطة الجديدة التي، من جديد، فكر بها الشاب ذو القلب الطيب أحمد، فانزعجت من قبوله طلب أحمد بالبقاء في منزله ورفضه طلبها في البقاء معها ومنزلها أكبر من الشقة التي سيعيش فيها، هناك أحسّ الشيخ بشعور لم يعرفه قبلا، أهو الحنان؟ أهي السعادة؟ أم هي العائلة الحقيقية؟ فالكلّ كان يتسابق لإرضائه وكسب محبته.

قد يكون الشيخ أحمد جاهلا عندما يتعلّق الأمر بلغة اللسان ، ولكنّه خبير عندما يتعلق الأمر بلغة القلوب ، أحس اهتمام أحدهما بالآخر عندما يسمعان اسم بعضيهما وسط الحوار ، فكلاهما يرفعان أعينهما للمخاطب عندما يسمعان اسم الآخر ، لم يبق له سوى نصب الشرك ، فقال:

- لا بأس يا ابنتي ، أعلم أنّك وحيدة ، ولكن أحمد في وحدة أكبر منك ، فهو يتيم متبنى ، ويحس بعدم الانتماء لأي أحد ، ولا لأية عائلة ، وهو عنيد مصرّ وملحّ لا يرضخ بسهولة ولا يثق بسهولة أيضا ، يخاف أن يؤذي من يحب ، فيبتعد عنهم بدل الاقتراب ، أخاف أن أبتعد عنه ولو بمسافة صغيرة مثل المسافة التي بين منزلك ومنزله ، فأخسره ، أخسر أثمن شيء حصلت عليه ، لم يمض على تعرفي عليه مجرّد أيام ، وها أنا متعلق به كابني الذي خسرته وأكثر.

من كلماته ، أو رسالته المخفية تعلمت الكثير ، هناك من يحبنا فيُصّر علينا ويسأل عنّا ويظهر اهتمامه بنا علنًا ، وهناك من يفعلها في

الخفاء، ويُبقي الاهتمام بين ثنايا نفسه، وحبه مغلقا بين قضبان صدره. هناك الذي تأذي في حياته، فأصبح يلوم نفسه على أذى الناس الذين أحبهم، فبمجرد إحساسه بالحب، يبتعد ويبقي مسافة تمنع المحبوب من الإحساس بحُبه، يخاف الماضي أن يُعيد نفسه، يخاف إيذائهم ويخاف أن يُحسّوا بالألم الذي أحسّ به هو جراء فقدان من يُحب، فيشتاق في صمت ويهتم في خفية، جرْحُ نفسه أفضل من جرْحِ من يهتم بهم، أحمد كان هكذا، الفرق الوحيد هو أنّه أخفى الأمر بمهارة، وعاش في صمت.

****

أصبح الليل موعدا لها لتُقلّب صفحات الذكريات، وتتذكر سعادتها معه، كلّما فعلت، كلّما زادت رغبتها في البوح له عن اشتياقها، ثم تتراجع خوفا من إجابته، فكم تأذت وسَعِدت في نفس الوقت فخرا بتلك الإجابة التي لم يقلها شاب لأي فتاة رمت نفسها عليه في وقتنا هذا أبدا، تلك الإجابة "أخاف الله ربي" كانت مليئة

بالأسرار والتساؤلات ، يرتعش جسدها بمجرد التفكير فيها ، ولكن الأمر اختلف وهي أرملة ، وسرعان ما سيتهافت عليها الخُطّاب من كلّ نوعٍ ومن كلّ باب ، وهي في أعماق نفسها.. لم تكن تريد خسارة أحمد.

تأكدت من كلمات الشيخ أنّ أحمد لم يكن من النوع الذي يقوم بالخطوة الأولى تجاه الفتاة ، وعلمت أنّ خطوتها الثانية ستمتزج بطعم المذلّة ، وفقدان الكرامة إن قوبلت بالرفض مُجددا.

"ولكنه لم يرفض ، بل واجه الواقع ، وأخبر الحقائق.."

تُوسوس لها نفسها من جديد.

مع أوائل ساعات الليل التالي ، بعد كلّ ذلك التفكير ، وجدت رسالة تكتبها له لا تحمل في كلماتها الحب ، ولا تحمل المذلّة ، بل كرسالته تحمل الواقع والحقائق ، فأرسلت له رسالة على هاتفه تقول:

"إن كنت تخاف الله ربي ، فقد فتح الله لك باب الحلال إكراما إليك ، وإنْ كنت لا تُحبّني ، فقد أغلق الله عليك باب الأعذار إكراما لي".

لم يمض على تلك الرسالة إلا ليلة واحدة فقط حتى زارتها جارتها صباحا تخبرها بأنّ أحمد ينوي التقدّم لخطبتها بعد انتهاء عدّتها ، وبالفعل فعل ، تقدّم لها ، ووافقت هي ، وأجبرت عائلتها على الموافقة. انتقل أحمد للعيش في منزلها ، والعمل في المتجر ، اشترطت عليه تغيير الأثاث ، وخاصة السرير ؛ أبوه الجرّاح لم يكن يريد البقاء وحيدا ، فأجبر الشيخ وعائلته على الانتقال معه للأبد ، كان هو وأحمد يشتركان في صفتي العناد والإلحاح أكثر من المتوقع ، قَبِل الشيخ بكلّ سرور ، وكل أولئك الأولاد عوضوا عليه وعلى زوجته ألم فُقدان ابنه العاق ، لكن موته عاصيًا لم يمنعهما من الدعاء له في كل صلاة ، مهما فعل ، فقد كان ودوْما سيبقى ، فلذة كبدهما الأول ، مهما تغير عنّا من نحب أو رحلوا ، تبقى ذكرياتهم خالدة في عقولنا ،

وذكرياته كانت براءة وحب ، تعلّم الشيخ درسا كان يعلمه منذ البداية ، لكنّه مثلنا لا يُطبّق ما نعلمه ، وما أن تضيق الحياة بنا حتى نفقد إيماننا ، كلّنا نعلم أنّ الحياة صعبة ، لكنّنا يجب أن نتذكر دوما أنّها زائلة أيضا ، ما تعلّمه هو أن يثق ويحسن الظن بالله الذي لا يزول.